وعن بعضهم أنّه كره ذلك، وقال: يقال: قرأت السورة التي تذكر فيها البقرة. عن رسول الله ﷺ: «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإنّ تعلمها بركة، وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة. قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة»[1].

سورة آل عمران

مكية وهي مائتا آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾.

ميم: حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام، وأن يبدأ ما بعدها، كما تقول: واحد اثنان، وهي قراءة عاصم، وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف.

فإنْ قلتَ: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام، فلا تثبت حركتها؛ لأنّ ثبات حركتها كثباتها. **قلتُ:** هذا ليس بدرج؛ لأنّ ميم في حكم الوقف، والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنّما حذفت تخفيفاً وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها، ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال.

فإنْ قلتَ: هلا زعمت أنّها حركة لالتقاء الساكنين؟ **قلتُ:** لأنّ التقاء الساكنين لا يبالى به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق، ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمان في ألف لام ميم لالتقاء الساكنين ولما انتظر ساكن آخر.

فإنْ قلتَ: إنّما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في ميم؛ لأنّهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك، فحركوا. **قلتُ:** الدليل على أنّ الحركة ليست لملاقاة الساكن أنّه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، بسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا بين ساكنين، كما قالوا: أصيم ومديق، فلما حركوا الدال علم أنّ حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين.

فإنْ قلتَ: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ **قلتُ:** هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وما هي بمقولة.

نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾.

و ﴿التوراة والإنجيل﴾ اسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وأفعيل إنّما يصح بعد كونهما عربيين، وقرأ الحسن: الإنجيل بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمة؛ لأنّ أفعيل بفتح الهمزة عديم في أوزان العرب.

فإنْ قلتَ: لم قيل: نزل الكتاب، وأنزل التوراة والإنجيل[2]؟ **قلتُ:** لأنّ القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابات جملةً. وقرأ الأعمش: نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب.

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾.

﴿هدى للناس﴾ أي: لقوم موسى وعيسى، ومن قال: نحن متعبدون بشرائع من قبلنا، فسره على العموم.

فإنْ قلتَ: ما المراد بالفرقان؟ **قلتُ**[3]: جنس الكتب السماوية؛ لأنّ كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي نكرها، كأنّه قال: بعد ذكر الكتب الثلاثة وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما قال: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾[4] وهو ظاهر، أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله، ﴿بآيات الله﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿ذو انتقام﴾[5] له انتقام شديد لا يقدر على مثله منتقم.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة الحديث رقم: (1871).

(2) قال أحمد: يريد لأن فعل صيغة مبالغة وتكثير، فلما كان نزول القرآن منجماً، كان أكثر تنزيلاً من غيره، لتفرقه في مرار عديدة، فعبر عنه بصيغة مطابقة، لكثرة تنزيلاته، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة، والتكثير، والله أعلم.

(3) قال: والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي ذكرها أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما أفرده وأخر ذكره في قوله: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾، أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له، ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل، بعدما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله، والله أعلم. قال أحمد: وقد جعل الزمخشري سر = التعبير عن نزول القرآن، بصيغة فعل تفريقه في التنزيل، كما تقدّم آنفاً، ثم حمل الفرقان على أحد تأويلاته على القرآن، والتعبير عنه بأفعل كغيره، فإن يكن هذا، والله أعلم، فالوجه أنه لما عبر أولاً عن نزوله الخاص به، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى ذكره ثانياً لينعت بصفة زائدة على اسم الجنس، عبر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاء بتميزه أوّلاً، وإجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى الكلام يجمل في غير مقصوده، ويفصل في مقصوده.

(4) سورة النساء، الآية: 163.

(5) قال أحمد: وإنما يلقى هذا التفخيم من التنكير، وهو من علاماته مثله في قوله: ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾، قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات﴾ الآية.

﴿لا يخفى عليه شيء﴾ في العالم فعبر عنه بالسماء والأرض، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن وهو مجازيهم عليه.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾.

﴿كيف يشاء﴾ من الصور المختلفة المتفاوتة. وقرأ طاوس: تصوركم، أي: صوركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالاً، إذا جعلته أثلة، أي: أصلاً، وتأثلته إذا أثلته لنفسك، وعن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أنّ عيسىٰ كان رباً، كأنّه نبّه بكونه مصوراً في الرحم على أنّه عبد كغيره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾.

﴿محكمات﴾[1] أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. متشابهات مشتبهات محتملات ﴿هنّ أمّ الكتاب﴾ أي: أصل الكتاب، تحمل المتشابهات عليها وتردّ إليها، ومثال ذلك ﴿لا تدركه الأبصار﴾ ﴿إلى ربّها ناظرة﴾ ﴿لا يأمر بالفحشاء﴾ ﴿أمرنا مترفيها﴾.

فإنْ قلتَ: فهلا كان القرآن كله محكماً؟ **قلتُ:** لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمّل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله؛ ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوّة في إيقانه. ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾ هم أهل البدع، ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق. ﴿ابتغاء الفتنة﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم، ﴿وابتغاء تأويله﴾ وطلب أن يأولوه التأويل الذي يشتهونه، ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ أي: لا يهتدي[2] إلا تأويله الحق الذي يجب، أي: يحمل عليه، إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكنوا، وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من

---

(1) قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه، لتنزيل الآي على وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي، أو لذلك أنّ معتقده إحالة رؤية الله تعالى، بناء على زعم القدرية من أنّ الرؤية تستلزم الجسمية، والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية، كقوله: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه، حتى يردّوه بزعمهم إلى الآية، التي يدعون أنّ ظاهرها يوافق رأيهم، والآية. قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ وغرضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فنقول محمل قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ في دار الدنيا، ومحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعاً بين الأدلة، أو نقول الأبصار وإن كانت ظاهرة العموم، إلا أن المراد بها الخصوص، أي: لا تدركه أبصار الكفار، كقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾، أو نقول: لا تعارض بين الآيتين، فتقرّ كل واحدة منهما في نصابها، وبيان ذلك أنّ الأبصار عالم بالألف واللام الجنسيتين، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم، إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذٍ يكون في العموم مرادفة لدخول كل؛ لأنّ كليهما أعني المعرف، والجنسي، وكلا يفيد الشمول والإحاطة، وإذا أثبت ذلك، فالسلب داخل على الكلية، والقواعد مستقرّة على أن سلب الكلية جزئي لغة ومتعقلاً، الا ترى أنّ القائل، إذا قال لا تنفق كل الدراهم، كان المفهوم من ذلك الإذن في إنفاق البعض، والنهي عن إنفاق البعض، ومن حيث المعقول أنّ الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد، ولو واحداً وحينئذٍ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأبصار، وثبوتها لبعض الأبصار، وهذا عين مذهب أهل السنة؛ لأنهم يثبتونها للموحدين، ويسلبونها عن الكفار، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ فقد ثبت أنّ هذه الآية، إما محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها دليلاً على =

= ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال، قد ثبت الفرق بين دخول كل على المعرف تعريف الجنس، وبين عدم دخولها ألا ترى أنهم يقولون إنّ قولنا الإنسان كاتب مهمل في قوة الجزئي، وأنّ قولنا كل إنسان حيوان كلي لا جزئي. لأنا نقول إنما جارتنا القدرية على ما يلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام ولكفونا مؤنة البحث في ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين، لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملاً، بل هذا هو الكلي عندهم، والله الموفق، وأما الآيتان الأخريان، اللتان إحداهما قوله تعالى: ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ والأخرى، التي هي قوله تعالى: ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ فلا ينازع الزمخشري في تمثيل المحكم، والمتشابه بهما.

(2) قال أحمد رحمه الله: وقوله لا يهتدي إليه إلا الله، عبارة قلقة، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أنّ في هذه اللفظة إيهاماً إذاً، لاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جهل وضلال، جل الله وعزّ، حتى أن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه فلان المهتدى، ذلك مقتضى اللغة فيه، فإنه مطاوع هدى يقال: هديته، فاهتدى، الإجماع منعقد على أنّ ما لم يرد إطلاقه، وكان موهماً لا يجوز إطلاقه على الله عزّ وجل، ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى، حيث حدّ مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه، فلأن ينكر على الزمخشري إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجدر، وما أراها صدرت منه إلا وهماً حيث أضاف العلم إلى الله تعالى، وإلى الراسخين في العلم، فأطلق الاهتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه نكرهم مضائين إلى الله تعالى في الفعل المذكور، والله أعلم.

يقف على قوله ﴿إلا الله﴾ ويبتدئ ﴿والراسخون في العلم يقولون﴾ ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه والأوّل هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل. ﴿يقولون آمنا به﴾ أي: بالمتشابه ﴿كل من عند ربنا﴾ أي: كلّ واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه. ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمّل، ويجوز أن يكون ﴿يقولون﴾ حالاً من الراسخين. وقرأ عبد الله: إن تأويله إلاّ عند الله. وقرأ أبيّ: ويقول الراسخون.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾.

﴿لا تزغ قلوبنا﴾[1] لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا، ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا إلطافك بعد إذ لطفت بنا. ﴿من لدنك رحمة﴾ من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة، وقرىء: لا تزغ قلوبنا بالتاء والياء، ورفع القلوب.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾.

﴿جامع الناس ليوم﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾[2]. وقرىء: جامع الناس على الأصل ﴿إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾، معناه: أنّ الإلٰهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إنّ الجواد لا يخيب سائله. والميعاد: الموعد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾.

قرأ علي رضي الله عنه: لن تغني، بسكون الياء، وهذا من الجدّ في استثقال الحركة على حروف اللين. من في قوله: ﴿من الله﴾ مثله في قوله: ﴿وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً﴾[3]، والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله ﴿شيئاً﴾، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق، ومنه: «ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد». أي: لا ينفعه جدّه، وحظه من الدنيا بذلك. أي: بدّل طاعتك وعبادتك وما عندك، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾[4]. وقرىء: وقود بالضم، بمعنى: أهل وقودها. والمراد بالذين كفروا: من كفر برسول الله ﷺ، وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾.

الدأب: مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم، ويجوز أن ينتصب محل الكاف بـ «لن» تغني أو بالوقود، أي: لن تغني عنهم مثل ما لم تغن عن أولئك، أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كدأب أبيك، تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإنّ فلاناً لمحارف كدأب أبيه، تريد كما حورف أبوه ﴿كذبوا بآياتنا﴾ تفسير لدأبهم ما فعلوا وفعل بهم على أنّه جواب سؤال مقدّر عن حالهم.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾.

﴿قل للذين كفروا﴾ هم مشركو مكة ﴿ستغلبون﴾ يعني: يوم بدر، وقيل: هم اليهود، ولما غلب رسول الله ﷺ يوم بدر قالوا: هذا والله النبيّ الأميّ الذي بشرنا به موسىٰ، وهموا باتباعه، فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا، وقيل: جمعهم رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل». فقالوا: لا يغرّنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصةً لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس[5]. فنزلت. وقرىء: سيغلبون ويحشرون بالياء، كقوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم﴾[6] على قل لهم قولي لك سيغلبون.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ **قلتُ:** معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم، فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون، وهو الكائن من نفس المتوعد به، والذي يدل عليه اللفظ، ومعنى القراءة بالتاء: الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه، كأنّه قال: أدّ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك: سيغلبون ويحشرون.

---

(1) قال أحمد: أمّا أهل السنة، فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرّفة؛ لأنهم يوحدون حق التوحيد، فيعتقدون أنّ كلّ حادث من هدى وزيغ، مخلوق لله تعالى، وأما القدرية فعندهم أنّ الزيغ لا يخلقه الله تعالى، وإنما يخلقه العبد لنفسه، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرّفة إلى غير المراد بها كما أوّلها المصنف ب، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافاً إلى هذه الدعوة، بأن لا يبيتنا، ولا يمنعنا لطفه آمين؛ لأنّ الكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو، وأفعاله التي= = نحن، وأفعالنا منها.

(2) سورة التغابن، الآية: 9.

(3) سورة النجم، الآية: 28.

(4) سورة سبأ، الآية: 37.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: كيف كان إخراج اليهود من المدينة الحديث رقم: (3001).

(6) سورة الأنفال، الآية: 38.

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾.

﴿قد كان لكم آية﴾ الخطاب لمشركي قريش، **﴿في فئتين التقتا﴾** يوم بدر. **﴿يرونهم مثليهم﴾**[1] يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين[2] ستمائة ونيفاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله، كما أمدّهم بالملائكة، والدليل عليه قراءة نافع: ترونهم بالتاء، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم.

فإنْ قلتَ: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال: **﴿ويقللكم في أعينهم﴾**[3] **قلتُ:** قللوا أوّلاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: **﴿فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جانّ﴾**[4] وقوله تعالى: **﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾**[5] وتقليلهم تارةً وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: **﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾**[6] بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾**[7] ولذلك وصف ضعفهم بالقلة؛ لأنّه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف، وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لا تساعد عليه، وقرأ ابن مصرف: يرونهم على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي: يريهم الله ذلك بقدرته. وقرىء: فئة تقاتل وأخرى كافرة بالجرّ على البدل من فئتين، وبالنصب على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقتا. **﴿رأى العين﴾** يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات، **﴿والله يؤيد بنصره﴾** كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾.

﴿زين للناس﴾[8] المزين هو الله سبحانه وتعالى للابتلاء كقوله: **﴿إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم﴾**[9]. ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان والله زينها لهم لأنّا لا نعلم أحداً أنم لها من خالقها، **﴿حب الشهوات﴾**[10] جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاةً محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات؛ لأنّ الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية. وقال: **﴿زين للناس حبّ الشهوات﴾** ثم جاء بالتفسير ليقرر أوّلاً في النفوس أنّ المزين لهم حبّه ما هو إلاّ شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلّ على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله.

والقنطار: المال الكثير، قيل: ملء مسك ثور، وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، و **﴿المقنطرة﴾** مبنية

---

(1) قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدّمة على رأي أهل السنة.

(2) قال أحمد: إنما قال ذلك؛ لأنّ الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أي: ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثلين أيضاً للمسلمين، وقد جاء على لفظ الغيبة، فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة، والالتفات، وإن كان سائغاً فصيحاً، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين، وقد جاء ههنا الكلام جملة واحدة؛ لأنّ مثليهم مفعول ثان للرؤية، ولو قال القائل ظننتك يقوم على لفظ الغيبة بعد الخطاب لم يكن بذاك، فهذا هو الوجه الذي باعد الزمخشري به بين قراءة نافع، وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين آنفاً؛ لأنه قال معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم، أو مثلي فئتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثاني، يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة، في الجملة بعينها، كما ألزمه هو على ذلك الوجه، والله أعلم.

(3) سورة الأنفال، الآية: 44.

(4) سورة الرحمٰن، الآية: 39.

(5) سورة الصافات، الآية: 24.

(6) سورة الأنفال، الآية: 66.

(7) سورة الأنفال، الآية: 65.

(8) قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق، ويراد به خلق حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء من جوهر، ومن عرض قائم بالجوهر حب، أو غيره محمود في الشرع أولاً، ويطلق التزيين، ويراد به الحض على تعاطي الشهوات، والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً، كالنكاح المقترن بقصد التناسل، واتباع السنة فيه، وما يجري مجراه، وأمّا الشهوات المحظوّة، فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلاً لوسوسته، وتحسينه منزلة الأمر بها، والحض على تعاطيها، وكلام الحسن رضي الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني، لا بالمعنى الأوّل، فإنه يحاشا أن ينسب خلق الله إلى غير الله، وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة، تنزيلاً لها على قواعد القدرية الفاسدة، فتفطن لها وبرئ قائلها من السلف الصالح، عما يزعم الزمخشري النقل عنه، والله الموفق.

(9) قال أحمد: يريد إلحاقها بباب رجل صوم وفطر مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(10) سورة الكهف، الآية: 7.

من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة وبدرة مبدرة، و ﴿المسوّمة﴾ المعلمة، من السومة وهي العلامة، أو المطهمة، أو المرعية، من أسام الدابة وسوّمها. و ﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية، ﴿ذلك﴾ المذكور ﴿متاع الحياة﴾.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾.

﴿للذين اتّقوا عند ربهم جنات﴾ كلام مستانف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم، كما تقول: هل أدلك على رجل عالم، عندي رجل من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يتعلق اللام بخير، واختص المتقين لأنّهم هم المنتفعون به. وترتفع ﴿جنات﴾ على هو جنات، وتنصره قراءة من قرأ: جنات بالجرّ على البدل من خير. ﴿والله بصير بالعباد﴾ يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعدّ لهم الجنات.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾.

﴿الذين يقولون﴾ نصب على المدح، أو رفع، ويجوز الجرّ صفةً للمتّقين أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها وقد مرّ الكلام في ذلك. وخص الأسحار؛ لأنّهم كانوا يقدّمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[1]. وعن الحسن: كانوا يصلون في أوّل الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار، هذا نهارهم وهذا ليلهم.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾.

شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد، كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة أولي العلم بذلك واحتجاجهم عليه. ﴿قائماً بالقسط﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب، ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنّه حال مؤكدة منه، كقوله: ﴿وهو الحق مصدّقاً﴾.

فإنْ قلتَ: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكباً لم يجز؟ **قلتُ:** إنّما جاز هذا لعدم الإلباس، كما جاز في قوله: ﴿ووهبنا له إسحٰق ويعقوب﴾[2] نافلة، أن تنصب نافلة حالاً عن يعقوب، ولو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة، أو على المدح.

فإنْ قلتَ: أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة، كقولك: الحمد لله الحميد، إنا معشر الأنبياء لا نورث، إنا بني نهشل لا ندعى لأب! **قلتُ:** قد جاء نكرةً، كما جاء معرفةً، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرةً قول الهذلي:

ويأوي إلى نسوة عطل وشعثاً مراضيع مثل السعالي

فإنْ قلتَ: هل يجوز أن يكون صفةً للمنفي، كأنّه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ **قلتُ:** لا يبعد فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف.

فإنْ قلتَ: قد جعلته حالاً من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالاً عن هو في لا إله إلا هو؟ **قلتُ:** نعم؛ لأنّها حال مؤكدة، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها كقولك: أنا عبد الله شجاعاً، وكذلك لو قلت: لا رجل إلا عبد الله شجاعاً، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدح.

فإنْ قلتَ: هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولي العلم، كما دخلت الوحدانية؟ **قلتُ:** نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفةً للمنفي، كأنّه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنّه لا إله إلا هو، وأنّه قائم بالقسط. وقرأ عبد الله: القائم بالقسط، على أنّه بدل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو حنيفة: قيماً بالقسط. ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان مقرّرتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل، يعني: أنّه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله.

فإنْ قلتَ: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ **قلتُ:** هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد. وقرىء: أنّه بالفتح، وإنّ الدين بالكسر على أنّ الفعل واقع على أنّه بمعنى: شهد الله على أنّه، أو بأنّه.

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾.

وقوله: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى.

فإنْ قلتَ: ما فائدة هذا التوكيد؟ **قلتُ:** فائدته أنّ قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ توحيد وقوله: ﴿قائماً بالقسط﴾ تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ فقد آذن أنّ الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين، وفيه أنّ من ذهب إلى

(1) سورة فاطر، الآية: 10.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 72.

تشبيه أو ما يؤدّي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بيِّن جلي كما ترى. وقرئا مفتوحين على أنّ الثاني بدل من الأوّل، كأنّه قيل: شهد الله أنّ الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً لأنّ دين الله هو التوحيد والعدل. وقرىء: الأوّل بالكسر والثاني بالفتح على أن الفعل واقع على أن، وما بينهما اعتراض مؤكد، وهذا أيضاً شاهد على أنّ دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك. وقرأ عبد الله: أن لا إلٰه إلا هو، وقرأ أبيّ: إنّ الدين عند الله الإسلام، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية، وقرىء: شهداء الله بالنصب على أنّه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله.

فإنْ قلتَ: فعلام عطف على هذه القراءة، **﴿والملائكة، وأولوا العلم﴾**؟ **قلتُ:** على الضمير في شهداء، وجاز لوقوع الفاصل بينهما.

فإنْ قلتَ[1]: لم كرّر قوله: **﴿لا إلٰه إلاّ هو﴾**؟ **قلتُ:** ذكره أوّلاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية، وأنّه لا إلٰه إلا تلك الذات المتميزة، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل للدلالة على اختصاصه بالأمرين، كأنّه قال: لا إلٰه إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: **﴿العزيز الحكيم﴾** لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل. **﴿الذين أوتوا الكتاب﴾** أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنّهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد والعدل. **﴿من بعد ما جاءهم العلم﴾** أنّه الحق الذي لا محيد عنه، فثلثت النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوّة فينا من قريش؛ لأنّهم أمّيون، ونحن أهل كتاب، وهذا تجوير لله **﴿بغياً بينهم﴾** أي: ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرياسة، وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً يطؤن أعقابهم لا شبهةً في الإسلام، وقيل: هو اختلافهم في نبوّة محمد ﷺ حيث آمن به بعض، وكفر به بعض، وقيل: هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء فمنهم من آمن بموسىٰ، ومنهم من آمن بعيسىٰ، وقيل: هم اليهود واختلافهم أنّ موسىٰ عليه السلام حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بني إسرائيل وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع، فلما مضى قرن بعد قرن اختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغياً بينهم وتحاسداً على حظوظ الدنيا والرياسة، وقيل هم النصارى، واختلافهم في أمر عيسىٰ بعد ما جاءهم العلم أنّه عبد الله ورسوله.

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾.

﴿فإن حاجوك﴾ فإن جادلوك في الدين، **﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾** أي: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن أعبده، وأدعوه إلهاً معه. يعني: أنّ ديني التوحيد، وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾**[2] فهو دفع للمحاجة بأنّ ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه، فما معنى المحاجة فيه. **﴿ومن اتبعن﴾** عطف على التاء في أسلمت وحسن للفاصل، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولاً معه. **﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾** من اليهود والنصارى، **﴿والأمّيين﴾** والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. **﴿أأسلمتم﴾** يعني: أنّه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام، ويقتضي حصوله لا محالة، فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا التكرار لما قدّمته في نظيره، مما صدر الكلام به إذا طال عهده، وذلك أنّ الكلام مصدر بالتوحيد، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به، ثم قوله قائماً بالقسط، وهو التنزيه، فطال الكلام بذلك، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلى قوله: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدّم كالمنقطع في الفهم، مما أريد إيصاله به، والله أعلم، قال: وفيه أنّ من ذهب إلى تشبيه الخ، قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام، بل تصريح وما ينقم إلا أن صدّقوا، وعد الله عباده المكرّمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته؛ ولأنهم وحدوا الله حق توحيده، فشهدوا أن لا إلٰه إلا هو، ولا خالق لهم، ولأفعالهم إلا هو واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدر تقارن فعلهم لا خلق لها، ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية، والاضطرارية، وتلك المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى: ﴿بما كسبت أيديكم﴾ هذا إيمان القوم وتوحيدهم لا كقوم يغيرون في وجه النصوص، فيجحدون = الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاؤوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة، ومعاندة لله في ملكه، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل، والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة، فأنا أوّل المجبرين ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الإنصاف إلى جهالة القدرية، وضلالها لانبعثت إلى حدائق السنة، وظلالها ولخرجت عن مزالق البدع، ومزالها، ولكن كره الله انبعاثهم، ولعلمت، أي: الفريقين أحق بالأمن، وأولى بالدخول في أولى العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة، المشرفين بعطفهم على اسم الله عزّ وجلّ اللهم، الهمنا على اقتفاء السنة شكرك، ولا تؤمنا مكرك، إنه لا يأمن من مكر الله، إلا القوم الخاسرون، فليس ينجي من الخوف إلا الخوف، والله ولي التوفيق.

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلا: ﴿فهل أنتم منتهون﴾[1] بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار وتعبير بالمعاندة وقلة الإنصاف؛ لأنّ المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان، وكذلك في هل فهمتها: توبيخ بالبلادة وكلة القريحة، وفي فهل أنتم منتهون بالتقاعد عن الانتهاء، والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه. ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقد نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور. ﴿وإن تولوا﴾ لم يضروك فإنّك رسول منبه عليك إلاّ أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾.

قرأ الحسن: يقتلون النبيين، وقرأ حمزة: ويقاتلون الذين يأمرون، وقرأ عبد الله: وقاتلوا، وقرأ أبيّ: يقتلون النبيين والذين يأمرون، وهم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء، وقتلوا أتباعهم، وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله. وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر»، ثم قرأها، ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار.

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾.

﴿في الدنيا والآخرة﴾ لأنّ لهم اللعنة والخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

فإنْ قلتَ: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ **قلتُ:** لتضمن اسمها معنى الجزاء؛ كأنّه قيل: الذين يكفرون فبشرهم، بمعنى من يكفر فبشرهم، وإن لا تغير معنى الابتداء، فكأن دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها ليت أو لعلّ لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يريد أحبار اليهود، وأنّهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة، ومن إما للتبعيض وإما للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة، أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم: ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم﴾ وذلك أنّ رسول الله ﷺ دخل مدارسهم، فدعاهم، فقال نعيم بن عمر والحرث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قالا: إنّ إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إنّ بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها. فأبيا[2]. وقيل: نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه. وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنّهم قد علموا أنّه كتاب الله لم يشكوا فيه ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأنّ الرجوع إلى كتاب الله واجب، ﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم، وقرىء: ليحكم على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم، وأنّهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة، ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أنّ قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿ذلك﴾[3] التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل، كما طمعت المجبرة والحشوية. ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، كما غرت أولئك شفاعة رسول الله ﷺ في كبائرهم.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ فكيف يصنعون، فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعدّ لهم وتهويل لهم، وأنّهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأنّ ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون. وروي إنّ أوّل راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ثم

---

(1) سورة المائدة، الآية: 91.

(2) كشف الأستار، كتاب: الفتن، باب: فيمن قتل على ذلك الحديث رقم: (3314)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 56، والطبري في التفسير.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا أيضاً تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد، إلى مشيئة الله تعالى، وإن مات مصراً عليها إيماناً، بقوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن= يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وتصديقاً بالشفاعة، لأهل الكبائر، وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلاً يقيس عليهم اليهود القائلين، لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة، وشقاقاً كيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبيده الفقير إلى التورك عليه؛ لأن آخذ من أهل البدعة بثأر السنة، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين، بمقوّمات الأسنة.

يأمر بهم إلى النار. ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى؛ لأنّه في معنى: كل الناس، كما تقول: ثلاثة انفس، تريد ثلاثة أناسي.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾.

الميم في ﴿**اللهم**﴾ عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه وفيه لام التعريف وبقطع همزته في يا الله، وبغير ذلك. ﴿**مالك الملك**﴾ أي: تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، ﴿**تؤتي الملك من تشاء**﴾ تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك ﴿**وتنزع الملك ممن تشاء**﴾ النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأوّل عام شامل والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روي أنّ رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك[1] وروي: أنّ رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربةً صدّعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر، وكبر المسلمون. وقال: «أضاءت لي منها قصور الحيرة، كأنّها أنياب الكلاب»، ثم ضرب الثانية فقال: «أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم». ثم ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام: أنّ أمّتي ظاهرة على كلها فأبشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنّها تفتح لكم وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا[2]. فنزلت.

فإنْ قلتَ: كيف قال: ﴿**بيدك الخير**﴾ فذكر الخير دون الشر؟ **قلتُ:** لأنّ الكلام إنّما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك؛ ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه.

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾.

ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم وينلهم، ويؤتيه العرب ويعزهم، وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمةً، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبةً، فلا تشتغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم.

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾.

وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونوا يولى عليكم»[3]. نهوا أن يولوا الكافرين لقرابة بينهم، أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشروا، وقد كرّر ذلك في القرآن: ﴿ومن يتولهم منكم فإنّه منهم لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء لا تجد قوماً يؤمنون بالله﴾[4] الآية: والمحبة في الله، والبغض في الله، باب عظيم، وأصل من أصول الإيمان. ﴿**من دون المؤمنين**﴾ يعني: أنّ لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثروهم عليهم. ﴿**ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء**﴾ ومن يوال الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني: أنّه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول، فإنّ موالاة الوليّ وموالاة عدوّه متنافيان، قال:

تودّ عدوّي ثم تزعم أنني ... صديقك ليس النوك عنك بعازب

﴿**إلا أن تتقوا منهم تقاة**﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. وقرىء: تقيةً، قيل للمتقى: تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروبه، رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه: كن وسطاً وامش جانباً. ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد، ويجوز أن يضمن تتقوا معنى: تحذروا وتخافوا، فيعدى بمن، وينتصب تقاةً، أو تقيةً على المصدر، كقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾[5].

---

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 57.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 57، وأخرجه أحمد في المسند 4/303، وابن أبي شيبة 14/422، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق.

(3) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 14972)..

(4) سورة المائدة، الآية: 51.

(5) سورة آل عمران، الآية: 102.

قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾.

﴿إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه﴾ من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضي الله **﴿يعلمه﴾** ولم يخف عليه، وهو الذي **﴿يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض﴾** لا يخفى عليه منه شيء قط فلا يخفى عليه سركم وعلنكم. **﴿والله على كل شيء قدير﴾** فهو قادر على عقوبتكم، وهذا بيان لقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[1] لأنّ نفسه وهي ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا تختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنّه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن بواطن أموره لأخذ حذره، وتيقظ في أمره واتقى كل ما يتوقع فيه الاستراباة به، فما بال من علم أنّ العالم الذات الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنّا نعوذ بك من اغترارنا بسترك.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾.

﴿يوم تجد﴾ منصوب بـ **﴿تودّ﴾**. والضمير في بينه لليوم، أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرّها حاضرين، تتمنى لو أنّ بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمداً بعيداً، ويجوز أن ينتصب يوم تجد بمضمر نحو: انكر، ويقع على ما عملت وحده ويرتفع وما عملت على الابتداء، وتودّ خبره. أي: والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطيةً لارتفاع تود.

فإنْ قلتَ: فهل يصح أن تكون شرطيةً على قراءة عبد الله: ودّت؟ **قلتُ:** لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى؛ لأنّه حكاية الكائن في ذلك اليوم واثبت لموافقة قراءة العامّة، ويجوز أن يعطف وما عملت على ما عملت، ويكون تودّ حالاً، أي يوم تجد عملها محضراً وادّةً تباعد ما بينها وبين اليوم، أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾[2] يعني: مكتوباً في صحفهم يقرؤونه. ونحوه: ﴿فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه﴾[3].

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾.

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة **﴿فاتبعوني﴾** حتى يصحّ ما تدّعونه من إرادة عبادته يرض عنكم ويغفر لكم، وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنّهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل فمن ادّعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع نكرها ويطرب وينعر ويصعق، فلا تشك في أنّه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا لأنّه تصوّر في نفسه الخبيثة صورةً مستملحةً معشقةً فسماها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها، وربما رأيت المني قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامّة على حواليه قد ملؤوا أردانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرىء: تحبون ويحببكم ويحبكم، من حبه يحبه. قال:

أحب أبا ثروان من حب تمره ... وأعلم أنّ الرفق بالجار أرفق
ووالله لولا تمره ما حببته ... ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿فإن تولوا﴾ يحتمل أن يكون ماضياً وأن يكون مضارعاً، بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾.

﴿آل إبراهيم﴾ إسمٰعيل وإسحٰق وأولادهما، و **﴿آل عمران﴾**[6] موسٰى وهٰرون ابنا عمران بن يصهر، وقيل: والأمد: المسافة، كقوله تعالى: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾[4] وكرّر قوله: **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه، **﴿والله رؤوف بالعباد﴾** يعني: أنّ تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد؛ لأنّهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه، وعن الحسن: من رأفته بهم أن حذرهم نفسه، ويجوز أن يريد أنّه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته مرجوّ لسعة رحمته، كقوله تعالى: ﴿إنّ ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾[5].

(1) سورة آل عمران، الآية: 28.
(2) سورة الكهف، الآية: 49.
(3) سورة المجادلة، الآية: 6.
(4) سورة الزخرف، الآية: 38.
(5) سورة فصلت، الآية: 43.

(6) قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني، أنّ السورة تسمى آل عمران، ولم تشرح قصة عيسى ومريم، في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة، وأمّا موسى وهارون، فلم يذكر من قصتهما في هذه السورة، فدلّ ذلك على أنّ عمران المذكور ههنا، هو أبو مريم، والله أعلم.

عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة.

ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾.

﴿ذرّية﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران **﴿بعضها من بعض﴾** يعني: أنّ الآلين ذرّية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض، موسى وهٰرون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحٰق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ، وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: **﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾**[1] **﴿والله سميع عليم﴾** يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أنّ بعضهم من بعض في الدين، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾.

و**﴿إذ﴾** منصوب به، وقيل: بإضمار انكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان أمّ مريم البتول جدّة عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاقوذ، وقوله: **﴿إذ قالت امرأت عمران﴾** على أثر قوله **﴿وآل عمران﴾** مما يرجح أنّ عمران هو عمران بن ماثان جدّ عيسى، والقول الآخر يرجحه أنّ موسى يقرن بإبراهيم كثيراً في الذكر.

فإنْ قلتَ: كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهٰرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أنّ عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهٰرون؟ **قلتُ:** كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنّه عمران أبو البتول؛ لأنّ زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوّج زكريا بنته إيشاع أخت مريم، فكان يحيى وعيسى ابني خالة.

روي: أنّها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت فبينا هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إنّ لك علي نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدّق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل. **﴿محرّراً﴾** معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يدَ لي عليه، ولا أستخدمه، ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. وروي أنّهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خيّر بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، وعن الشعبي: محرّراً مخلصاً للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنّما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق ذكراً.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾.

﴿فلما وضعتها﴾[2] الضمير لما في بطني وإنّما أنث على المعنى؛ لأنّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة.

فإنْ قلتَ: كيف جاز انتصاب **﴿أنثى﴾** حالاً من الضمير في وضعتها وهو كقولك: وضعت الأنثى أنثى؟ **قلتُ:** الأصل وضعته أنثى، وإنّما أنث لتأنيث الحال؛ لأنّ الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنث الاسم في **﴿ما كانت أمّك﴾** لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: **﴿فإن كانتا اثنتين﴾**[3] وأمّا على تأويل الحبلة أو النسمة، فهو ظاهر، كأنّه قيل: إنّي وضعت الحبلة أو النسمة أنثى.

فإنْ قلتَ[4]: فلم قالت: **﴿إنّي وضعتها أنثى﴾** وما أرادت إلى هذا القول؟ **قلتُ:** قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربها؛ لأنّها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً ولذلك نذرته محرّراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأنّ يجعله وولده آيةً للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً، فلذلك تحسرت. وفي قراءة ابن عباس: والله أعلم بما وضعت، على خطاب الله تعالى لها أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلوّ قدره. وقرىء: وضعت، بمعنى: ولعلّ لله تعالى فيه سراً وحكمةً ولعلّ هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: **﴿وليس الذكر كالأنثى﴾؟ قلتُ:** هو بيان لما في قوله **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** من

---

(1) سورة التوبة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: الضمير في قوله وضعتها يتناول، إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة، وتلك الجهة كونها شيئاً وضع، لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها، وقد مرّ هذا البحث بعينه، عند قوله تعالى: **﴿فإن لم يكونا رجلين﴾**.

(3) سورة النساء، الآية: 176.

(4) قال أحمد: هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى، لا حكاية عنها، وقد ذكر أهل التفسير تأويلاً آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاه الله تعالى عنها، أعني قوله وليس الذكر كالأنثى، ويرشد إليه = عطف كلامها عليه، وهو قوله: **﴿وإني سميتها مريم﴾** إلخ، ويوردون على هذا الوجه أنّ قياس كونه من قولها أن يكون، وليست الأنثى كالذكر، فإنّ مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل، لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه، الا ترى إلى قوله تعالى: **﴿لستنّ كأحد من النساء﴾**، فنفي عن الكامل شبه الناقص مع أنّ الكمال، لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم، ومنه أيضاً **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾**.

التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد.

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: ﴿**وإنّي سميتها مريم**﴾؟ **قلتُ:** هو عطف على ﴿**إنّي وضعتها أنثى**﴾ وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله تعالى: ﴿وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[1].

فإنْ قلتَ[2]: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ **قلتُ:** لأنّ مريم في لغتهم بمعنى العابدة، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث: «ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه إلاّ مريم وابنها»[3]. فالله أعلم بصحته، فإن صح، فمعناه أنّ كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلاّ مريم وابنها فإنّهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما، كقوله تعالى: ﴿لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾[4] واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنّه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأمّا حقيقة المس والنخس، كما يتوهم أهل الحشو، فكلا ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾.

﴿**فتقبلها ربها**﴾ فرضي بها في النذر مكان الذكر، ﴿**بقبول حسن**﴾ فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء، كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمّها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. وروي: أنّ حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم في بيت المقدس، كالحجبة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها؛ لأنّها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نقترع عليها، فانطلقوا، وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فتكفلها. والثاني أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتقبلها بذي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص، ويجوز أن يكون معنى فتقبلها: فاستقبلها. كقولك: تعجله بمعنى: استعجله، وتقصاه بمعنى: استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوّله وعنفوانه. قال القطان:

وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبعه اتباعاً

ومنه المثل: «خذ الأمر بقوابله»؛ أي: فأخذها في أوّل أمرها حين ولدت بقبول حسن. ﴿**وأنبتها نباتاً حسناً**﴾ مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. وقرىء: وكفلها زكرياء، بوزن وعملها. ﴿**وكفلها زكرياء**﴾ بتشديد الفاء ونصب زكرياء الفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، ويؤيدها قراءة أبيّ: وأكفلها من قوله تعالى: ﴿فقال أكفلنيها﴾[5]. وقرأ مجاهد: فتقبلها ربها وأنبتها، وكفلها على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها ندعوا بذلك، أي: فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد أي: غرفة يصعد إليها بسلم، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدّمها؛ كأنّها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وروي أنّه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب. ﴿**وجد عندها رزقاً**﴾ كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. ﴿**أنى لك هذا**﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك. ﴿**قالت هو من عند الله**﴾ فلا تستبعد، قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهد، وعن النبي ﷺ: أنّه جاع في زمن قحط، فأهدت له فاطمة

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 76.

(2) قال أحمد: أمّا الحديث، فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه عليه السلام، بتحميله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزعة في إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض، وقد قدمت عند قوله تعالى: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ﴾، ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان، إلا طعن في خواصر القدرية، حتى بقرها، ووكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري، وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى، وكلام رسوله عليه السلام، بما يتخيل كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره جراءة، وسوء= = أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً، لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود، لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، وما هو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الوبي، وارتكاب الهوى الوبيل.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ الحديث رقم: (3431)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسىٰ عليه السلام الحديث رقم: (6086).

(4) سورة الحجر، الآيتان: 39، 40.

(5) سورة صّ، الآية: 23.

رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم آثرته بها، فرجع بها إليها وقال: هلمي يا بنية، فكشفت عن الطبق، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت، وعلمت أنّها نزلت من عند الله فقال لها ﷺ: «أنى لك هذا»؟ فقالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل». ثم جمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها[1]. **﴿إنّ الله يرزق﴾** من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزة عز من قائل، **﴿بغير حساب﴾** بغير تقدير لكثرته، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾.

﴿هنالك﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت[2]، فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر **﴿ذرية﴾** ولداً، والذرية يقع على الواحد والجميع. **﴿سميع الدعاء﴾** مجيبه.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾.

قرىء: فناداه الملائكة، وقيل: ناداه جبريل عليه السلام، وإنّما قيل: الملائكة، على قولهم: فلان يركب الخيل. **﴿إنّ الله يبشرك﴾** بالفتح على بأن الله، وبالكسر على إرادة القول، أو لأنّ النداء نوع من القول. وقرىء: يبشرك ويبشرك من بشره وأبشره، ويبشرك بفتح الياء من بشره. ويحيي إن كان أعجمياً، وهو الظاهر، فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كيعمر. **﴿مصدّقاً بكلمة من الله﴾** مصدّقاً بعيسى مؤمناً به. قيل: هو أوّل من آمن به، وسمى عيسى كلمة؛ لأنّه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله: كن من غير سبب آخر. وقيل: مصدّقاً بكلمة من الله مؤمناً بكتاب منه، وسمى الكتاب كلمة، كما قيل: كلمة الحويدرة لقصيدته.

والسيد: الذي يسود قومه أي: يفوقهم في الشرف، وكان يحيي فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنّه لم يرتكب سيئةً قط، ويا لها من سيادة.

والحصور: الذي لا يقرب الناس حصراً لنفسه أي: منعاً لها من الشهوات، وقيل: هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأخطل:

وشارب مربح بالكاس نادمني ... لا بالحصور ولا فيها بسآر

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو، وقد روي أنّه مرّ وهو طفل بصبيان، فدعوه إلى اللعب، فقال: ماللعب خلقت. **﴿من الصالحين﴾** ناشئاً من الصالحين؛ لأنّه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كقوله: **﴿وإنّه في الآخرة لمن الصالحين﴾**[3].

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾.

﴿أنّى يكون لي غلام﴾ استبعاد من حيث العادة، كما قالت مريم **﴿وقد بلغني الكبر﴾**، كقولهم: أدركته السنّ العالية، والمعنى: أثر فيّ الكبر فأضعفني وكانت له تسع وتسعون سنة ولامرأته ثمان وتسعون، **﴿كذلك﴾** أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء بيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات.

قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾.

﴿آية﴾ علامة أعرف الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر، **﴿قال آيتك أن لا﴾** تقدر على تكليم الناس **﴿ثلاثة أيام﴾**، وإنّما خص تكليم الناس ليعلمه أنّه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصةً مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله، ولذلك قال: **﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشيّ والإبكار﴾** يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة.

فإنْ قلتَ: لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ **قلتُ:** ليخلص المدّة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنّه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقاً من السؤال ومنتزعاً منه. **﴿إلا رمزاً﴾** إلاّ إشارةً بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرّك. يقال: ارتمز إذا تحرّك، ومنه قيل للبحر: الرامور، وقرأ يحيى بن وثاب: إلا رمزاً، بضمتين جمع رموز كرسول ورسل. وقرىء: رمزاً بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم،

---

(1) أبو يعلى.

(2) قال أحمد: لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر، على مشاهدة مثله، فإنّ العقل يقضي بجواز ذلك في قدرة الله تعالى، وإن لم يقع نظيره، وأحسن من هذه العبارة، وأسلم أن يقال لما = شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم، امتدّ أمله إلى حادث يناسبه كرامة له، والله أعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 130.

وهو حال منه ومن الناس دفعةً، كقوله:

متى ما تلقني فردين ترجف روانف أليتيك وتستطارا

بمعنى: إلاّ مترا مزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم. والعشي: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، و﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقرىء: والأبكار بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وإسحار، يقال: أتيته بكراً بفتحتين.

فإنْ قلتَ: الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثني منه؟ **قلتُ:** لما أدّى مؤدّى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿يا مريم﴾ روي: أنّهم كلموها شفاهاً معجزةً لزكريا، أو إرهاصاً لنبوّة عيسى. **﴿اصطفاك﴾** أوّلاً حين تقبلك من أمّك ورباك واختصك بالكرامة السنية، **﴿وطهرك﴾** مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود، **﴿واصطفاك﴾** آخراً **﴿على نساء العالمين﴾** بأن وهب لك عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾.

أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيآت الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: **﴿واركعي مع الراكعين﴾** بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة، أو انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم، ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع، وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعني: أنّ ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي.

فإنْ قلتَ: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ **قلتُ:** كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنّه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنّه لا سماع له ولا قراءة، ونحوه: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾[1] ﴿وما كنت بجانب الطور﴾[2] ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم﴾ **﴿أقلامهم﴾** أزلامهم، وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين، وقيل: هي: الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة اختاروها للقرعة تبركاً بها. **﴿إذ يختصمون﴾** في شأنها تنافساً في التكفل بها.

فإنْ قلتَ: **﴿أيهم يكفل﴾**، بم يتعلق؟ **قلتُ:** بمحذوف دلّ عليه **﴿يلقون أقلامهم﴾** كأنّه قيل: يلقونها ينظرون أيّهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿المسيح﴾ لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك، كقوله: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾[3] وكذلك **﴿عيسى﴾** معرب من أيشوع ومشتقهما من المسح، والعيس كالراقم في الماء.

فإنْ قلتَ: **﴿إذ قالت﴾** بم يتعلق؟ **قلتُ:** هو بدل من **﴿وإذ قالت الملائكة﴾**، ويجوز أن يبدل من **﴿إذ يختصمون﴾** على أنّ الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا.

فإنْ قلتَ[4]: لم قيل **﴿عيسى ابن مريم﴾** والخطاب لمريم؟ **قلتُ:** لأنّ الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلمت بنسبته إليها أنّه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين.

فإنْ قلتَ: لم ذكر ضمير الكلمة؟ **قلتُ:** لأنّ المسمى بها مذكر.

فإنْ قلتَ[5]: لم قيل: **﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾** وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ **قلتُ:** الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنّه قيل: الذي يعر به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة. **﴿وجيهاً﴾** حال من كلمة، وكذلك قوله: **﴿ومن المقربين﴾** **﴿ويكلم﴾** **﴿ومن الصالحين﴾** أي: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات، وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة. والوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلوّ

---

(1) سورة القصص، الآية: 44.
(2) سورة القصص، الآية: 46.
(3) سورة مريم، الآية: 31.
(4) قال أحمد: ويحقق هذا الجواب قولها، أنى يكون لي ولد، ولم يمسسني بشر، فإنه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد، ما يدل على أنه من غير أب إلا أنه لما نسبه إليها دلّ على أنها فهمت من ذلك، كونه من غير أب، والله أعلم.
(5) قال أحمد: وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه، فيقولون = المسيح في الآية إن أريد به التسمية، وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم، والتسمية لا توصف بالنبوة، وإن أريد بالمسيح المسمى بهذه التسمية لم يلتئم مع قوله اسمه، ويجاب عن الإشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه والمراد التسمية، وأما عيسى ابن مريم، فخبر مبتدأ محذوف تقديره هو عيسى ابن مريم، ويكون الضمير عائداً إلى المسمى بالتسمية المذكورة منقطعاً عن قوله المسيح، والذي قرّره الزمخشري لا يرد عليه هذا الإشكال، وهو حسن جداً، والله أعلم.

الدرجة في الجنة. وكونه ﴿من المقرّبين﴾ رفعه إلى السماء، وصحبته للملائكة.

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾.

والمهد: ما يمهد للصبي من مضجعه سمي بالمصدر، و﴿في المهد﴾ في محل النصب على الحال، ﴿وكهلاً﴾ عطف عليه بمعنى: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً. ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾.

ومن بدع التفاسير أنّ قولها: ﴿رب﴾ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى: يا سيدي.

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾.

﴿ونعلمه﴾ عطف على يبشرك، أو على وجيهاً، أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ. وقرأ عاصم ونافع: ويعلمه بالياء.

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾.

فإنْ قلتَ: علام تحمل ﴿ورسولاً﴾ ﴿ومصدّقاً﴾ من المنصوبات المتقدمة وقوله: ﴿أني قد جئتكم﴾ و﴿لما بين يدي﴾ يأبى حمله عليها؟ **قلتُ:** هو من المضائق وفيه وجهان.

أحدهما: أن يضمر له وأرسلت على إرادة القول تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم، ومصدّقاً لما بين يدي، والثاني: أن الرسول والمصدّق فيهما معنى النطق، فكأنه قيل: وناطقاً بأني قد جئتكم، وناطقاً بأني أصدق ما بين يدي. وقرأ اليزيدي: ورسول، عطفاً على كلمة ﴿أني قد جئتكم﴾ أصله أرسلت بأنّي قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل. و﴿أنّي أخلق﴾ نصب بدل من أني قد جئتكم، أو جرّ بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم. وقرىء: إنّي بالكسر على الاستئناف أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير، ﴿فانفخ فيه﴾ الضمير للكاف أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، ﴿فيكون طيراً﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً، وقرأ عبد الله: فانفخها. قال: كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما. وقيل: لم يخلق غير الخفاش. ﴿الأكمه﴾ الذي ولد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، ويقال: لم يكن في هذه الأمّة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروي: أنّه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر ﴿بإذن الله﴾ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية. وروي: أنّه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا: هذا سحر، فأرنا آيةً، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبئ لك كذا. وقرىء: تذخرون، بالذال والتخفيف.

﴿ولأحل﴾ ردّ على قوله: ﴿بآية من ربّكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربّكم ولأحل لكم، ويجوز أن يكون مصدقاً مردوداً عليه أيضاً، أي: جئتكم بآية وجئتكم مصدقاً. وما حرّم الله عليهم في شريعة موسىٰ: الشحوم، والثروب، ولحوم الإبل، والسمك، وكل ذي ظفر، فأحلّ لهم عيسىٰ بعض ذلك، قيل: أحلّ لهم من السمك والطير ما لا صيصة له، واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرىء: حرّم عليكم على تسمية الفاعل، وهو ما بين يدي من التوراة، أو الله عزّ وجلّ، أو موسىٰ عليه السلام؛ لأنّ ذكر التوراة دلّ عليه؛ ولأنّه كان معلوماً عندهم. وقرىء: حرّم بوزن كرم. ﴿وجئتكم بآية من ربّكم﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله: ﴿إنّ الله ربّي وربّكم﴾ لأنّ جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرئ بالفتح على البدل من آية، وقوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ اعتراض.

فإنْ قلتَ: كيف جعل هذا القول آيةً من ربه؟ **قلتُ:** لأنّ الله تعالى جعله له علامةً يعرف بها أنّه رسول كسائر الرسل حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال، ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: ﴿جئتكم بآية من ربّكم﴾ أي: جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيات وبغيره من ولادتي بغير أب ومن كلامي في المهد ومن سائر ذلك. وقرأ عبد الله: وجئتكم بآيات من ربّكم فاتّقوا الله لما جئتكم به من الآيات وأطيعوني فيما أدعوكم إليه، ثم ابتدأ، فقال: إنّ الله ربّي وربّكم. ومعنى قراءة من فتح؛ ولأنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه كقوله: ﴿لإيلاف قريش... فليعبدوا﴾[1] ويجوز أن يكون المعنى: وجئتكم بآية على أنّ الله ربّي وربّكم وما بينهما اعتراض.

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿فلما أحس﴾ فلما علم منهم ﴿الكفر﴾ علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، و ﴿إلى الله﴾ من صلة أنصاري مضمناً معنى الإضافة، كأنّه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني، كما ينصرني، أو

(1) سورة قريش، الآيات: 1 ـ 3.

يتعلق بمحذوف حالاً من الياء أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه. ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: أنصار دينه ورسوله.

وحواري الرجل صفوته وخالصته، ومنه قيل للحضريات الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن، قال:

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

وفي وزنه الحوالي، وهو الكثير الحيلة. وإنّما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأنّ الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿مع الشاهدين﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو مع الذين يشهدون بالوحدانية، وقيل: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنّهم شهداء على الناس.

وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿ومكروا﴾ الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلةً. ﴿ومكر الله﴾ أن رفع عيسىٰ إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل. ﴿والله خير الماكرين﴾ أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿إذ قال الله﴾ ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله ﴿إني متوفيك﴾ أي: مستوفي أجلك ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك، ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم، ﴿ورافعك إليّ﴾ إلى سمائي ومقرّ ملائكتي، ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل: متوفيك قابضك من الأرض، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته. وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، وقيل: متوفي نفسك بالنوم، من قوله: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾[1] ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب. ﴿فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يعلونهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون؛ لأنّهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى. ﴿فأحكم بينكم﴾ تفسير الحكم قوله: ﴿فأعذبهم﴾ ﴿فنوفيهم أجورهم﴾ وقرىء: فيوفيهم بالياء.

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسىٰ وغيره، وهو مبتدأ خبره ﴿نتلوه﴾، و ﴿من الآيات﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ونتلوه صلته ومن الآيات الخبر، ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره نتلوه. ﴿والذكر الحكيم﴾ القرآن وصف بصفة من هو من سببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾.

﴿إنّ مثل عيسىٰ﴾ إنّ شأن عيسىٰ وحاله الغريبة كشأن آدم، وقوله: ﴿خلقه من تراب﴾ جملة مفسرة لما له شبه عيسىٰ بآدم أي: خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، فكذلك حال عيسىٰ.

فإنْ قلتَ: كيف شبّه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أب وأم؟ **قلتُ:** هو مثيله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به؛ لأنّ المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنّه شبّه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأنّ الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبّه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه، وعن بعض العلماء أنّه أسر بالروم، فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ **قالوا:** لأنّه لا أب له، **قال:** فآدم أولى؛ لأنّه لا أبوين له. **قالوا:** كان يحيي الموتى، قال: فحزقيل أولى؛ لأنّ عيسىٰ أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى لأنّه طبخ وأحرق، ثم قام سالماً. ﴿خلقه من تراب﴾ قدّره جسداً من طين ﴿ثم قال له كن﴾ أي: أنشاه بشراً، كقوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾[2] ﴿فيكون﴾ حكاية حال ماضية.

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿الحق من ربّك﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق كقول أهل خيبر: محمد والخميس[3]. ونهيه عن الامتراء ـ وجلّ رسول الله ﷺ أن يكون ممترياً ـ من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره.

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل

(1) سورة الزمر، الآية: 42.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 14.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: 27 الحديث رقم: (3647)، والحديث ليس عند مسلم.

لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾.

﴿فمن حاجك﴾ من النصارى ﴿فيه﴾ في عيسىٰ ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي: من البيّنات الموجبة للعلم. ﴿تعالوا﴾ هلموا والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعال نفكر في هذه المسألة، ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ أي: يدع كل مني ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة، ﴿ثم نبتهل﴾ ثم نتباهل، بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم.

والبهلة: بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، من قولك: أبهله إذا أهمله، وناقة باهل لا صرار عليها، وأصل الابتهال هذا ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. وروي: أنّهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا، قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتى رسول الله ﷺ، وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، وأن نقرّك على دينك ونثبت على ديننا. قال: «فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم». فأبوا. قال: «فإني أناجزكم». فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة، ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد، فصالحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردةً وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا»[1]. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة ثم عليّ ثم قال: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾[2][3].

فإنْ قلتَ: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى: ضم الأبناء والنساء؟ **قلتُ:** ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وربّما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوّة النبي ﷺ؛ لأنّه لم يرو واحد من موافق ولا مخالف أنّهم أجابوا إلى ذلك.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي قصّ عليك من نبأ عيسىٰ ﴿لهو القصص الحق﴾ قرىء: بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون؛ لأنّ اللام تنزل من هو منزلة بعضه فخفف كما خفف عضد، وهو إما فصل بين اسم إنّ وخبرها، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر إن.

فإنْ قلتَ: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ **قلتُ:** إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ومن في قوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾ بمنزلة البناء على الفتح في لا إله إلا الله في إفادة معنى الاستغراق، والمراد: الرد على النصارى في تثليثهم.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾.

﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾[4].

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿يا أهل الكتاب﴾ قيل: هم أهل الكتابين، وقيل: وفد نجران، وقيل: يهود المدينة. ﴿سواء بيننا وبينكم﴾ مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في أخذ الجزية الحديث رقم: (3041).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل = أهل البيت الحديث رقم: (6211).

(3) سورة الأحزاب، الآية: 33.

(4) سورة النحل، الآية: 88.

والإنجيل، وتفسير الكلمة قوله: **﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾** يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأنّ كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى: **﴿اتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾**[1]، وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم. قال: نعم. قال: هو ذاك. وعن الفضيل: لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وقرىء: كلمة بسكون اللام. وقرأ الحسن: سواء بالنصب بمعنى: استوت استواء. **﴿فإن تولوا﴾** عن التوحيد **﴿فقولوا اشهدوا بانا مسلمون﴾** أي: لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما. اعترف بأني أنا الغالب وسلم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾.

زعم كل فريق من اليهود والنصارى أنّ إبراهيم كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه، فقيل لهم: إن اليهودية إنّما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسىٰ ألف سنة، وبينه وبين عيسىٰ ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة. **﴿أفلا تعقلون﴾** حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره. و **﴿حاججتم﴾** جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم **﴿فيما لكم به علم﴾** مما نطق به التوراة والإنجيل، **﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾** ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش: ها أنتم، هو آ أنتم على الاستفهام فقلبت الهمزة هاءً، ومعنى الاستفهام: التعجب من حماقتهم، وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، وحاججتم صلته، **﴿والله يعلم﴾** علم ما حاججتم فيه **﴿وأنتم﴾** جاهلون به.

مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾.

ثم أعلمهم بأنّه بريء من دينكم وما كان إلا **﴿حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾** كما لم يكن منكم، أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح.

إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الولي وهو القرب **﴿للذين اتبعوه﴾** في زمانه وبعده **﴿وهذا النبي﴾** خصوصاً **﴿والذين آمنوا﴾** من أمته. وقرىء: وهذا النبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه أي: اتبعوه واتبعوا هذا النبي، وبالجر عطفاً على إبراهيم.

وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿ودّت طائفة﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية. **﴿وما يضلون إلا انفسهم﴾** وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأنّ العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم، أو وما يقدرون على إضلال المسلمين وإنّما يضلون أمثالهم من أشياعهم.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿بآيات الله﴾ بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها أنّهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوّة رسول الله ﷺ وغيرها وشهادتهم اعترافهم بأنّها آيات الله، أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوّة الرسول. **﴿وأنتم تشهدون﴾** نعته في الكتابين، أو تكفرون بآيات الله جميعاً، وأنتم تعلمون أنّها حق.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾.

قرىء: تلبسون بالتشديد، وقرأ يحيى بن وثاب: تلبسون بفتح الباء أي: تلبسون الحق مع الباطل، كقوله: كلابس ثوبي زور. وقوله:

إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿وجه النهار﴾ أوّله قال:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليات نسوتنا بوجه نهار

والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أوّل النهار **﴿واكفروا﴾** به في آخره، لعلهم يشكون في

(1) سورة التوبة، الآية: 31.

دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم، إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم، وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أوّل النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينهم. وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أوّل النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة لعلهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا، فيرجعون.

وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾.

﴿ولا تؤمنوا﴾ متعلق بقوله: **﴿أن يؤتى أحد﴾** وما بينهما اعتراض أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، أرادوا: أسرّوا تصديقكم بأنّ المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيته، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام[1]. **﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾** عطف على **﴿أن يؤتى﴾**[2] والضمير في يحاجوكم لأحد؛ لأنّه في معنى الجمع بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، إنّ المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة.

فإنْ قلتَ: فما معنى: الاعتراض؟ **قلتُ:** معناه أنّ الهدى هدى الله من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الإسلام كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم، وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين وكذلك قوله تعالى: **﴿قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾** يريد الهداية والتوفيق، أو يتمّ الكلام عند قوله: **﴿إلا لمن تبع دينكم﴾** على معنى ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم، إلاّ لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأنّ رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأنّ إسلامهم كان أغيظ لهم. وقوله: **﴿أن يؤتى﴾** معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه لا لشيء آخر. يعني: أنّ ما بكم من الحسد والبغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: أأن يؤتى أحد، بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: **﴿أو يحاجوكم﴾** على هذا؟ **قلتُ:** معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم، ويجوز أن يكون هدى الله بدلاً من الهدى، وأن يؤتى أحد خبر إنّ على معنى: قل إنّ هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، **﴿أو يحاجوكم﴾** حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم. وقرىء: أن يؤتى أحد، على إن النافية وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، حتى يحاجوكم عند ربكم. يعني: ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب أن يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله: **﴿ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم﴾** كأنّه قيل: قل إنّ الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، لأنّ قولهم: ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم. إنكار لأنّ يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ۖ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾.

عن ابن عباس **﴿من إن تامنه بقنطار﴾** هو عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأدّاه إليه، و **﴿من إن تامنه بدينار﴾** فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجحده وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم. **﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾** إلا مدّة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقرىء: يؤده بكسر الهاء والوصل، وبكسرها بغير وصل، وبسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب: تئمنه بكسر التاء، ودمت بكسر الدال من دام يدام. **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ترك الأداء الذي دلّ عليه لم يؤدّه أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: **﴿ليس علينا في الأمّيين سبيل﴾** أي: لا يتطرّق علينا عتاب وذم في شأن الأمّيين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا،

---

(1) قال أحمد: وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال، وهو وقوع أحد في الواجب؛ لأنّ الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات إذ حاصله، أنه أنكر عليهم، ووبخهم على ما وقع منهم، وهو إخفاء الإيمان بأنّ النبوّة لا تخص بني إسرائيل، لأجل العلتين المذكورتين، فهو إثبات محقق، ويمكن أن يقال: روعيت صيغة= = الاستفهام، وإن لم يكن المراد حقيقة، فحسن لذلك دخول أحد في سياقه، والله أعلم.

(2) قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾.

وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم. وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها: «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر»[1]. وعن ابن عباس: أنه سأل رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل إنهم إذا أدّوا الجزية لم يحلّ لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم **﴿ويقولون على الله الكذب﴾** بادعائهم أن ذلك في كتابهم **﴿وهم يعلمون﴾** أنهم كاذبون.

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأمّيين أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: **﴿من أوفى بعهده﴾** جملة مستأنفة مقرّرة للجملة التي سدّت بلى مسدها، والضمير في بعهده راجع إلى من أوفى، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر فإنّ الله يحبه.

فإنْ قلتَ: فهذا عام يخيل أنّه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. **قلتُ:** أجل لأنّهم إذا وفوا بالعهود وفّوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتّقوا الله في ترك الخيانة لاتّقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى على أنّ كل من وفى بعهد الله واتّقاه فإنّ الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء.

فإنْ قلتَ: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ **قلتُ:** عموم المتّقين قام مقام رجوع الضمير. وعن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿يشترون﴾ يستبدلون **﴿بعهد الله﴾** بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم، **﴿وأيمانهم﴾** وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمن به ولننصرنّه، **﴿ثمناً قليلاً﴾** متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء، ونحو ذلك. وقيل: نزلت في أبي رافع ولبابة ابن أبي الحقيق وحيّ بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول الله ﷺ وأخذوا الرشوة على ذلك. وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبّه علينا فرويداً حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفةً غير صفته، ثم رجعوا إليه، وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعت الذي نعت لنا. ففرح ومارهم. وعن الأشعث بن قيس: نزلت فيّ، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «شاهداك أو يمينه»، فقلت: إذن يحلف ولا يبالي. فقال: «من حلف على يمين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان»[2]. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه، والوجه أن نزولها في أهل الكتاب، وقوله: **﴿بعهد الله﴾**، يقوّي رجوع الضمير في بعهده إلى الله. **﴿ولا ينظر إليهم﴾** مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم، تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه. **﴿ولا يزكيهم﴾** ولا يثني عليهم.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر، وفيمن لا يجوز عليه؟ **قلتُ:** أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية لأنّ من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارةً عن الاعتداد والإحسان، وإن لم يكن ثم نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿لفريقاً﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيّ بن أخطب وغيرهم. **﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾** يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف. وقرأ أهل المدينة يلوون بالتشديد، كقوله: **﴿لووا رؤوسهم﴾**[3]. وعن مجاهد وابن كثير: يلون، ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزةً ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

فإنْ قلتَ: إلام يرجع الضمير في **﴿لتحسبوه﴾**؟ **قلتُ:** إلى ما دلّ عليه يلوون ألسنتهم بالكتاب وهو المحرف، ويجوز أن يراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب. وقرىء: ليحسبوه بالياء بمعنى يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب، **﴿ويقولون هو من عند الله﴾** تأكيد لقوله: **﴿هو من الكتاب﴾** وزيادة تشنيع عليهم وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنّهم

(1) ذكره الطبري في تفسيره، (3/227)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (2/44)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (2/51).

(2) عبد الرزاق في مصنّفه 6/91، الحديث رقم: (10102).

(3) سورة المنافقون، الآية: 5.

لا يعرضون ولا يورون، وإنما يصرحون بأنّه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسىٰ كذلك، لفرط جراءتهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ما كان لبشر﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسىٰ، وقيل: إنّ أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني»[1] فنزلت. وقيل: قال رجل: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله»[2]. **﴿والحكم﴾** والحكمة وهي السنة، **﴿ولكن كونوا ربانيين﴾** ولكن يقول كونوا، والرّباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، كما يقال: رقباني ولحياني وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية أنّه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات ربانيّ هذه الأمّة. وعن الحسن: ربّانيين علماء فقهاء. وقيل: علماء معلمين، وكانوا يقولون: الشارع الرباني العالم العامل المعلم. **﴿بما كنتم﴾** بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوّة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكدّر روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعةً إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرةً حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها. وقرىء: تعلمون من التعليم وتعلمون من التعلم. **﴿تدرسون﴾** تقرؤن، وقرىء: تدرسون من التدريس، وتدرسون على أن أدرس بمعنى درس كاكرم وكرم وأنزل ونزل، وتدرسون من التدرس، ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسونه على الناس، كقوله: لتقرأه على الناس، فيكون معناهما معنى تدرسون من التدريس، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربّه منقطع حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

وقرىء: ولا يأمركم، بالنصب عطفاً على ﴿ثم يقول﴾ وفيه وجهان: أحدهما أن تجعل لا مزيدةً لتاكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾[3] والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمركم **﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾** كما تقول ما كان بد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي. والثاني أن تجعل لا غير مزيدة، والمعنى أنّ رسول الله ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح، فلما قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله: ولن يأمركم، والضمير في ولا يأمركم وأيأمركم لبشر، وقيل لله، والهمزة في أيأمركم للإنكار. **﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾** دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ميثاق النبيين﴾ فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه كما تقول ميثاق الله وعهد الله كأنّه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثّقه الأنبياء على أممهم. والثالث أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف، والرابع أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم لأنّهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأنّا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، وتدل عليه قراءة أبيّ وابن مسعود: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب. واللام في[4] **﴿لما آتيتكم﴾** لام التوطئة لأنّ أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي لتؤمننّ لام جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ولتؤمنن سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى للذي آتيتكموه لتؤمننّ به وقرىء: لما آتيناكم، وقرأ حمزة: لما آتيتكم بكسر اللام، ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به، على أن ما مصدرية والفعلان معها أعني آتيتكم وجاءكم في معنى المصدرين، واللام داخلة للتعليل على معنى أخذ الله ميثاقهم لتؤمننّ بالرسول ولتنصرنّه لأجل

---

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 65.

(2) الواحدي في أسباب النزول ص 65.

(3) سورة آل عمران، الآية: 79.

(4) قال أحمد: يزيد على أن قوله رسول فاعل جاء؛ لأنه لا يخلو من=

= الضمير، وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً، ورسول خبر الموصول، ولم يرد الزمخشري إلا الأوّل، وهو ظاهر الآية.

أني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف، ويجوز أن تكون ما موصولة.

فإنْ قلتَ: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: **﴿ثم جاءكم﴾** لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة لأنّك لا تقول للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ **قلتُ**[1]: بلى لأنّ ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنّه قيل: للذي آتيكموه وجاءكم رسول مصدّق له. وقرأ سعيد بن جبير لما بالتشديد بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت لما، ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمننّ به. وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى **﴿إصري﴾** عهدي، وقرىء: أصري بالضم، وسمي إصراً؛ لأنّه مما يؤصر أي: يشدّ ويعقد، ومنه الأصار الذي يعقد به، ويجوز أن يكون المضموم لغةً في أصر كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار. **﴿فاشهدوا﴾** فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. **﴿وأنا على ذٰلكم﴾** من إقراركم وتشاهدكم، **﴿من الشاهدين﴾** وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ الميثاق والتوكيد **﴿فأولئك هم الفاسقون﴾** أي: المتمردون من الكفار.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾.

دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملةً على جملة، والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره **﴿أ﴾** يتولون، **﴿فغير دين الله يبغون﴾** وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنّه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروي: أنّ أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنّه أولى به، فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم». فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك[2]، فنزلت. وقرىء: يبغون بالياء وترجعون بالتاء، وهي قراءة أبي عمرو، لأنّ الباغين هم المتولون والراجعون جميع الناس. وقرئا: بالياء معاً وبالتاء معاً. **﴿طوعاً﴾** بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه، **﴿وكرهاً﴾** بالسيف، أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت. فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده، وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال بمعنى طائعين ومكرهين.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾.

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان، فلذلك وحّد الضمير في **﴿قل﴾**، وجمع في **﴿آمنا﴾**. ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه.

فإنْ قلتَ: لم عدّي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدّم من مثلها بحرف الانتهاء؟ **قلتُ:** لوجود المعنيين جميعاً لأنّ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارةً بأحد المعنيين وأخرى بالآخر. ومن قال: إنّما قيل: علينا لقوله قل، وإلينا لقوله قولوا، تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأنّ الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف ألا ترى إلى قوله: **﴿بما أنزل إليك﴾**[3] **﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾**[4]، وإلى قوله: **﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾**[5] **﴿ونحن له مسلمون﴾** موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها.

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾.

ثم قال: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾** يعني: التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى **﴿ديناً فلن يقبل منه... من الخاسرين﴾** من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشباع، وقرىء: ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام. **﴿كيف يهدي الله قوماً﴾** كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودلّ على تصميمهم بأنّهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأنّ الرسول حق، وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوّة وهم اليهود، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوّة إيمانهم من البينات. وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم: طعمة بن أبيرق ووحوح بن الأسلت والحرث بن سويد بن الصامت.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ

---

(1) قال أحمد: يريد أن الكلام، وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد، فيجوز دخوله في الصلة، والله أعلم.

(2) الواحدي في أسباب النزول ص 65 ـ 66.

(3) سورة النساء، الآية: 166.

(4) سورة المائدة، الآية: 48.

(5) سورة آل عمران، الآية: 72.

جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾.

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: **﴿وشهدوا﴾**؟ **قلتُ:** فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأنّ معناه بعد أن آمنوا كقوله تعالى: **﴿فأصدّق وأكن﴾**[1] وقول الشاعر:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار قد بمعنى كفروا وقد شهدوا أنّ الرسول حق. **﴿والله لا يهدي﴾** لا يلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أنّ اللطف لا ينفعهم.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ الكفر العظيم والارتداد. **﴿وأصلحوا﴾** ما أفسدوا أو ودخلوا في الصلاح. قيل: نزلت في الحرث بن سويد حين ندم على ردّته وأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية، فأقبل إلى المدينة فتاب، وقبل رسول الله ﷺ توبته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾.

﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن، أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم فيه في كل وقت وعداوتهم له ونقضهم ميثاقه وفتنتهم للمؤمنين وصدّهم عن الإيمان به وسخريتهم بكل آية تنزل. وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة. ازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون وإن أردنا الرجعة نافقنا بإظهار التوبة.

فإنْ قلتَ: قد علم أنّ المرتد كيفما ازداد كفراً فإنّه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى: **﴿لن تقبل توبتهم﴾**؟ **قلتُ:** جعلت عبارةً عن الموت على الكفر، لأنّ الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنّه قيل: إنّ اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم.

فإنْ قلتَ: فلم قيل في إحدى الآيتين لن تقبل بغير فاء، وفي الأخرى فلن يقبل؟ **قلتُ:** قد أوذن بالفاء أنّ الكلام بني على الشرط والجزاء، وأنّ سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أنّ الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب، كما تقول: الذي جاءني له درهم. لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك: فله درهم.

فإنْ قلتَ: فحين كان معنى: **﴿لن تقبل توبتهم﴾** بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجرّه إلى الموت على الكفر؟ **قلتُ:** لأنّه كم من مرتدٍ مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر.

فإنْ قلتَ: فأي فائدة في هذه الكناية، أعني إن كني عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة. **قلتُ:** الفائدة فيها جليلة وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار وإبراز حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها، ألا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾.

﴿ذهباً﴾ نصب على التمييز، وقرأ الأعمش: ذهب بالرفع رداً على ملء، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجال.

فإنْ قلتَ[2]: كيف موقع قوله: **﴿ولو افتدى به﴾**؟ **قلتَ:** هو كلام محمول على المعنى كأنّه قيل: فلن تقبل من

---

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) قال أحمد: لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب إليه بوجه، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره، ثم نقرّر وجهاً يطابق الآية، وذلك أنّ هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى، مثاله قولك: أكرم زيداً، ولو أساء، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره أكرم زيداً، لو أحسن ولو أساء، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه إن أساء، على أنّ إكرامه إن أحسن بطريق الأولى، ومنه كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم معناه، والله أعلم لو كان الحق على غيركم، ولو كان عليكم، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم، فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل، وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع، وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً؛ لأنّ قوله، ولو افتدى به يقتضي شرطاً آخر= = محذوفاً، يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى، وهذه الحال المذكورة، وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً، هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها، فلذلك قدر الكلام بمعنى لن يقبل من أحد منهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً، هو أولى بالقبول منها، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور، وأما تنزيل الآية عليه، فعسر جداً، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه، وأقرب مأخذ إن شاء الله، فنقول قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً، يكون على أحوال منها أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه، كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول، ومنها أن يقول المفتدي في التقدير، أفدي نفسي بكذا، وقد لا يفعل، ومنها أن يقول هذا القول، وينجز المقدار الذي يفدي به نفسه، ويجعله حاضراً عتيداً، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول=

أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً[1]، ويجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله: ﴿ولو أنّ للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾[2] والمثل يحذف كثيراً في كلامهم كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه، وأبو يوسف أبو حنيفة، تريد مثله: ولا هيثم الليلة للمطيّ، وقضية ولا أبا حسن لها، تريد ولا مثل هيثم ولا مثل أبي حسن. كما أنّه يراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا تريد أنت، وذلك أنّ المثلين يسدّ أحدهما مسدّ الآخر فكانا في حكم شيء واحد، وأن يراد فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدّق به ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه. وقرىء: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وعلا، ونصب ملء ومل لرض بتخفيف الهمزتين.

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾.

﴿لن تنالوا البر﴾ لن تبلغوا حقيقة البر ولن تكونوا أبراراً. وقيل: لن تنالوا برّ الله وهو ثوابه **﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾** حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها، كقوله: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾[3] وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله. وروي أنّها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إنّ أحب أموالي إليّ بيرحا فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ذاك مال رابح، أو مال رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها في أقاربه[4]. وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله. فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فكأن زيداً وجد في نفسه وقال: إنّما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّ الله تعالى قد قبلها منك»[5]. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جاريةً من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبته، فقال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فأعتقها[6]. ونزل بأبي نزّ ضيف فقال للمراعي: ائتني بخير إبلي، فجاء بناقة مهزولة، فقال: خنتني. قال: وجدت خير الإبل فحلها، فذكرت يوم حاجتكم إليه. فقال: إنّ يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي. وقرأ عبد الله: حتى تنفقوا بعض ما تحبون[7]، وهذا دليل على أنّ من في مما تحبون للتبعيض، ونحوه: أخذت من المال. ومن في **﴿من شيء﴾** لتبيين ما تنفقوا أي من أي شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه، **﴿فإنّ الله﴾** عليم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه.

۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾.

﴿كلّ الطعام﴾ كل المطعومات أو كل أنواع الطعام. والحل مصدر، يقال: حلّ الشيء حلاً، كقولك: ذلت الدابة ذلاً، وعزّ الرجل عزاً. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كنت أطيبه لحله وحرمه[8]، ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع. قال الله تعالى: ﴿لا هنّ حلّ لهم﴾[9]. والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبل وألبانها، وقيل: العروق، كان به عرق النسا فنذر إن شفي أن يحرّم على نفسه أحبّ الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه. وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله فهو كتحريم الله ابتداء، والمعنى: أنّ المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة، وتحريم ما حرّم عليهم منها لظلمهم وبغيهم، لم يحرّم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه. وهو ردّ على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم بما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم﴾[10] إلى قوله

= فديته، وإذا تعددت الأحوال، فالمراد في الآية أبلغ الأحوال، وأجدرها بالقبول، وهو أن يفتدي بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً، بأن يقدر على هذا الأمر العظيم، ويسلمه وينجزه اختياراً ومع ذلك لا يقبل منه، فمجرد قوله أبذل المال، وأقدر عليه، أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى، فيكون دخول الواو، والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثم أحوالاً أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة، وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً، ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم﴾، والله أعلم، وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص، ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس في ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار، ولو سلمتها إليّ في يدي هذه، فتأمّل هذا النظر، فإنه من السهل الممتنع، والله ولي التوفيق.

(1) قال أحمد: وعلى هذا النمط يجري الكلام على التأويل المتقدّم؛ =

(2) سورة الزمر، الآية: 47.

(3) سورة البقرة، الآية: 267.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأشربة، باب: استعذاب الماء الحديث رقم: (5611)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين... الحديث رقم: (2312).

(5) الطبري وعبد الرزاق في تفسيرهما.

(6) الطبري في تفسيره.

(7) راجع الدر المنثور.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الطيب عند الإحرام الحديث رقم: (1539)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: الطيب للمحرم عند الإحرام الحديث رقم: (2818).

(9) سورة الممتحنة، الآية: 10.

(10) سورة النساء، الآية: 160.

تعالى: ﴿عذاباً أليماً﴾[1] وفي قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما﴾[2] إلى قوله: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾[3] وجحود ما غاظهم واشمأزوا منه وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم. فقالوا: لسنا بأوّل من حرّمت عليه وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرّمةً على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلمّ جرّا إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرّمت علينا كما حرّمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدّد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرةً حرّم عليهم نوع من الطيبات عقوبةً لهم. ﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم مما هو ناطق به من أنّ تحريم ما حرّم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم لا تحريم قديم كما يدعونه. فروي أنّهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ بزعمه أنّ ذلك كان محرّماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾.

﴿قل صدق الله﴾ تعريض بكذبهم، كقوله: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[4] أي: ثبت أنّ الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم والزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾.

﴿وضع للناس﴾ صفة لبيت، والواضع هو الله عز وجلّ، تدل عليه قراءة من قرأ وضع للناس بتسمية الفاعل وهو الله، ومعنى وضع الله بيتاً للناس أنّه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أوّل متعبد للناس الكعبة. وعن رسول الله ﷺ أنّه سئل عن أوّل مسجد وضع للناس، فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس». وسئل: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة[5]. وعن عليّ رضي الله عنه أنّ رجلاً قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأوّل من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم، فبنته العمالقة، ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أوّل بيت حج بعد الطوفان. وقيل: هو أوّل بيت ظهر على وجه الماء عنّد خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته. وقيل: هو أوّل بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما أهبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السمٰوات. ﴿للذي ببكة﴾ البيت الذي ببكة وهي علم للبلد الحرام.

ومكة وبكة: لغتان فيه، نحو قولهم: النبيط والنميط في اسم موضع بالدهناء، ونحوه من الاعتقاب أمر راتب وراتم، وحمى مغمطة ومغبطة. وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكه إذا زحمه لازدحام الناس فيها. وعن قتادة: يبك الناس بعضهم بعضاً للرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة. كأنّها سميت ببكة وهي الزحمة. قال:

إذا الشريب أخذته الأكه فخله حتى يبك بكه

وقيل: تبك أعناق الجبابرة أي: تدقها، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. ﴿مباركاً﴾ كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف لأنّ التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدّر في الظرف من فعل الاستقرار. ﴿وهدى للعالمين﴾ لأنّه قبلتهم ومتعبدهم.

فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾.

﴿مقام إبراهيم﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آيات بينات﴾. **فإنْ قلتَ**[6]: كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ **قلتُ**: فيه

---

(1) سورة النساء، الآية: 161.

(2) سورة الأنعام، الآية: 146.

(3) سورة الأنعام، الآية: 146.

(4) سورة الأنعام، الآية: 146.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ الحديث رقم: (3425)، ومسلم في كتاب: = المساجد، ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1161).

(6) قال أحمد: ونظير هذا التأويل ما تقدّم لي عند قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم﴾. والوجه الثاني اشتماله على آيات؛ لأن أثر القدم في الصخرة الصماء، آية وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع =

وجهان:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوّة دلالته على قدرة الله ونبوّة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّة﴾[1].

والثاني: اشتماله على آيات لأنّ أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصةً، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية، ويجوز أن يراد: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله لأنّ الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالةً على تكاثر الآيات. كأنّه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما. ونحوه في طي الذكر قول جرير:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهمو ... من العبيد وثلث من مواليها

ومنه قوله عليه السلام: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة»[2]. وقرأ ابن عباس وأبيّ ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتيبة: آية بينة، على التوحيد، وفيها دليل على أنّ مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان.

فإنْ قلتَ: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات، وقوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، جملةً مستأنفةً، إما ابتدائيةً وإما شرطيةً! **قلتُ:** أجزت ذلك من حيث المعنى لأنّ قوله: **﴿ومن دخله كان آمناً﴾** دلّ على أمن داخله، فكأنّه قيل: فيه آيات بينات، مقام إبراهيم وأمن داخله، ألا ترى أنّك لو قلت: فيه آية بينة من دخله كان آمناً صحّ، لأنّه في معنى قولك: فيه آية بينة أمن من دخله.

فإنْ قلتَ: كيف كان سبب هذا الأثر؟ **قلتُ:** فيه قولان: أحدهما أنّه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر ففاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسمٰعيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه. ومعنى **﴿ومن دخله كان آمناً﴾** معنى قوله: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾[3]، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام: رب اجعل هذا البلد آمناً. وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه[4] وعند أبي حنيفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنّه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار. وعن النبي ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً»[5]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة»[6]. وعن ابن مسعود: وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذٍ مقبرة، فقال: «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر»[7]. وعن النبي ﷺ: «من صبر على حرّ مكة ساعةً من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام»[8]. **﴿من استطاع﴾** بدل من الناس، وروي: أنّ رسول الله ﷺ فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة[9]، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء. وعن ابن الزبير: هو على قدر القوة. ومذهب مالك أنّ الرجل إذا وثق بقوّته لزمه، وعنه: ذلك على قدر الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة. وعن الضحاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه، بل كان ينطلق إليه ولو حبواً فكذلك يجب عليه الحج. والضمير في **﴿إليه﴾** للبيت أو للحج، وكل مأتيّ إلى الشيء فهو سبيل إليه،[10] وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله: **﴿ولله على الناس حج البيت﴾** يعني: أنّه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته، ومنها

= كثرة عدوّه من المشركين، وأهل الكتاب، والملاحدة ألوف سنة آية، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم، وأمن من دخله.

(1) سورة النحل، الآية: 120.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/128، 285).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 67.

(4) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 5/153 الحديث رقم: (9228).

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك، فضل الحج والعمرة الحديث رقم: (4158)، وعبد الرزاق في المصنف 9/267 الحديث رقم: (17166)، والدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (193)، والطبري في الصغير ص 304 الحديث رقم: (814).

(6) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (1/419).

(7) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 34960).

(8) قال الزيلعي غريب 1/201.

(9) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (2998) عن ابن عمر. وكذلك ابن ماجه عن ابن عمر في كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2896)، والحاكم عن أنس في المستدرك 1/442، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2897)، والدارقطني في كتاب: الحج 2/215 .

(10) في هذا الكلام أنواع من التوحيد، منها قوله: ﴿ولله على الناس﴾، أي: في رقابهم لا ينفكون عنه إلخ.

أنّه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً وفيه ضربان من التاكيد: أحدهما أنّ الإبدال تثنية للمراد وتكرير له، والثاني، أنّ الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ومنها قوله: ﴿ومن كفر﴾[1] مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[2]. ونحوه من التغليظ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»[3]، ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. ومنها قوله: ﴿عن العالمين﴾ وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لأنّه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنّه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارةً عنه. وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود فإنّهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب. وروي: أنّه لما نزل قوله: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾، جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال «إنّ الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فآمنت به ملة واحدة وهو المسلمون وكفرت به خمس ملل. قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه. فنزل: ومن كفر[4]. وعن النبي ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنّه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة»[5]. وروي: «حجوا قبل أن لا تحجوا. حجوا قبل أن يمنع البر جانبه»[6]. وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت[7]. وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا[8]. وقرىء: حج البيت، بالكسر.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾.

﴿والله شهيد﴾ الواو للحال، والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد ﷺ، والحال أنّ الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته[9].

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾.

قرأ الحسن: تصدّون من أصدّه، ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين حق، علم أنّه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله. ﴿تبغونها عوجاً﴾[10] تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة.

فإنْ قلتَ: كيف تبغونها عوجاً وهو محال؟ **قلتُ:** فيه معنيان:

أحدهما: أنّكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجاً بقولكم: إنّ شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك.

والثاني: أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم. ﴿وأنتم شهداء﴾ أنّها سبيل الله التي لا يصدّ عنها إلا ضالّ مضلّ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم أمورهم،

---

(1) قال أحمد: قوله إنّ المراد بمن كفر من ترك الحج، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه فيه نظر، فإن قاعدة أهل السنة توجب أنّ تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً، فيتعين حمل الآية على تارك الحج، جاحداً لوجوبه، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد، لا إلى مجرد الترك، وأما الزمخشري فيستحل ذلك، لأنّ تارك الحج بمجرد الترك يخرج من ربقة الإيمان، ومن اسمه ومن حكمه؛ لأنه عنده غير مؤمن، ومخلد تخليد الكفار، وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما ذكرناه هذا، إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج، ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر، فيبقى على ظاهره، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج باب: ما جاء في التغليظ في ترك الحج، الحديث رقم: (812)، وأخرجه الدارمي عن أبي أمامة، كتاب: المناسك، باب: من مات ولم يحج الحديث رقم: (1785)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في المناسك الحديث رقم: (3978)، وعن أبي أمامة 3979.

(3) أخرجه أحمد في المسند 5/346 والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2621)، والنسائي في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الحكم في تارك الصلاة الحديث رقم: (463) وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء فيمن ترك = الصلاة الحديث رقم: (1079)، والحاكم في المستدرك 1/ 6ـ 7. الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2622).

(4) رواه الطبري في تفسيره.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرك عن علي 1/448. وابن أبي شيبة 15/49، كتاب: الفتن، باب: من كره الخروج...

(6) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (294).

(7) قال الزيلعي غريب 1/207.

(8) عبد الرزاق في مصنفه 5/13، الحديث رقم: (8827).

(9) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 67. والطبري في تفسيره.

(10) قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول، حيث قال تطلبون لها اعوجاجاً تنقيص من المعنى، وأتم من إعرابه، معنى أن تجعل الهاء في المفعول به، وعوجاً حال وقع فيها المصدر، الذي هو عوجاً موقع الاسم، وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم وتوبيخهم، والله أعلم.

وهو الأحبار. ﴿وما الله بغافل﴾ وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

قيل: مرشاس بن قيس اليهودي ـ وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدّثون، فغاظه ذلك، حيث تآلفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم وينكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ففعل، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح: فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم». فعرف القوم أنّها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. فما كان يوم أقبح أوّلاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾.

﴿وكيف تكفرون﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب، والمعنى: من أين يتطرّق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز ﴿تتلى عليكم﴾ على لسان الرسول غضةً طريةً، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم. ﴿ومن يعتصم بالله﴾ ومن يتمسك بدينه، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم. ﴿فقد هدى﴾ فقد حصل له الهدى لا محالة، كما تقول إذا جئت فلاناً: فقد أفلحت، كأنّ الهدى قد حصل، فهو يخبر عنه حاصلاً، ومعنى التوقع في قد ظاهر لأنّ المعتصم بالله متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾.

﴿حقّ تقاته﴾ واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم، ونحوه: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. وروي مرفوعاً[1]. وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، والتقاة: من اتقى كالتؤدة من اتأد. ﴿ولا تموتن﴾ معناه: ولا تكوننّ على حال سوى حال الإسلام إذا أدركتكم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدوّ: لا تأتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنّك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾.

قولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته بامتساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارةً لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه. والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به، ولا تفرقوا عنه، أو واجتمعوا على التمسك بعهده إلى عباده وهو الإيمان والطاعة، أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم»[2]. ﴿ولا تفرّقوا﴾ ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرّقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا ﴿إخواناً﴾ متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله. وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن ألطف الله تلك بالإسلام، وألف بينهم برسول الله ﷺ. ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر، ﴿فأنقذكم منها﴾ بالإسلام[3]، والضمير للحفرة

---

(1) ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (1/101).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن باب: ما جاء في فضل القرآن، الحديث رقم: (2906)، والدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، والحاكم في المستدرك 1/555، وأخرجه ابن أبي شيبة 10/482، كتاب: فضائل القرآن، باب: في التمسك بالقرآن.

(3) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور، كما تقول أكرمت غلام هند، وأحسنت إليها، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالإنقاذ منها حقيقة وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا، فلا يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوى إلى الحفرة، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة، التي يتوقع الهويّ فيها، فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون=

أو للنار أو للشفا، وإنّما أنث لإضافته إلى الحفرة وهو منها، كما قال:

كما شرقت صدر القناة من الدم

وشفا الحفرة وشفتها، حرفها بالتذكير والتأنيث، ولامها واو، إلا أنّها في المذكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبة.

فإنْ قلتَ: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ **قلتُ:** لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها. **﴿كذلك﴾** مثل ذلك البيان البليغ، **﴿يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾** إرادة أن تزدادوا هدى.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾.

﴿ولتكن منكم أمّة﴾ [1] من للتبعيض، [2] لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنّه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر. فإنّ الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأضرابهم. وقيل: من للتبيين، بمعنى: وكونوا أمّةً تأمرون، كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون﴾ [3] **﴿وأولئك هم المفلحون﴾** هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي ﷺ أنّه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم» [4] وعنه عليه السلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه» [5]. وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له [6]. وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه، فاعلم أنّه مداهن، والأمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فندب، وأما النهي عن المنكر فواجب كلّه لأنّ جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح.

فإنْ قلتَ: ما طريق الوجوب؟ **قلتُ:** قد اختلف فيه الشيخان فعند أبي على السمع والعقل، وعند أبي هاشم السمع وحده.

فإنْ قلتَ: ما شرائط النهي؟ **قلتُ:** أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح لأنّه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعاً لأنّ الواقع لا يحسن النهي عنه وإنّما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أنّ المنهي يزيد في منكراته وأن لا يغلب على ظنه أنّ نهيه لا يؤثر لأنّه عبث.

فإنْ قلتَ: فما شروط الوجوب؟ **قلتُ:** أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وأن لا يغلب على ظنه أنّه إنْ أنكر لحقته مضرة عظيمة.

فإنْ قلتَ: كيف يباشر الإنكار؟ **قلتُ:** يبتدئ بالسهل فإنْ لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأنّ الغرض كف المنكر، قال الله

= بلغ وأوقع، مع أنّ اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عدّه أبو علي في التعاليق، من ضرورة الشعر خلاف رأيه في الإيضاح نقله ابن يسعون، وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا، إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الإنقاذ الرباني، الا ترى إلى قوله عليه السلام: «**المرتع حول الحمى يوشك ان يقع فيه**»، وإلى قوله تعالى: ﴿أمّن أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم﴾ وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم، مع تاكيد ذلك بقوله ﴿هار﴾، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي هذا التبعيض، وتنكير أمّة تنبيه على قلة العاملين بذلك، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص، ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾ فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيهاً على قلة الناظر في معاده، وكذلك قوله: ﴿وتعيها أذن واعية﴾، حتى ورد في التفسير أنّ المراد أذن واحدة مخصوصة، وهي أذن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص، = لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله من كان عدواً لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، وكقوله: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وكقوله: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وشبه ذلك؛ لأنّ الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر، يفيده تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات، وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناوله، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور، أو ترك منهي لا يعدو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال، فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً، وفي تنبيه أنّ الذكر على وجهين، ما لا يخفى من العناية، والله أعلم، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف، والنهي عن المكر ببعض أنواع الخير، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم.

(3) سورة آل عمران، الآية: 110.

(4) أخرجه أحمد في المسند 1/432.

(5) ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (6/2104) وكنز العمال (5564).

(6) أبو نعيم في الحلية 1/74.

تعالى: ﴿فأصلحوا بينهما﴾[1] قال: فقاتلوا.

فإنْ قلتَ: فمن يباشره؟ **قلتُ:** كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه وقد أجمعوا أنّ من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار لأنّه معلوم قبحه لكل أحد، وأمّا الإنكار الذي بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى لأنّهم أعلم بالسياسة ومعهم عدّتها.

فإنْ قلتَ: فمن يؤمر وينهى؟ **قلتُ:** كل مكلف وغير المكلف إذا همّ بضرر غيره منع كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرّمات حتى لا يتعودوها كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها.

فإنْ قلتَ: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه؟ **قلتُ:** نعم يجب عليه لأنّ ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا: وعن الحسن أنّه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل. فقال: وأينا يفعل ما يقول، ودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف؟ **قلتُ:** الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيذاناً بفضله، كقوله: ﴿والصلاة الوسطى﴾[2].

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾.

﴿كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ وهم اليهود والنصارى، **﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾** الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية وأشباههم[3].

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾.

﴿يوم تبيض وجوه﴾ نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار اذكر. وقرىء: تبيض وتسودّ بكسر حرف المضارعة، وتبياض وتسواد، والبياض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق، وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته، وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل، وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودّت صحيفته، وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله. **﴿أكفرتم﴾** فيقال لهم: أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والظاهر أنّهم أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسودّ وجوه بني قريظة والنضير. وقيل: هم المرتدون، وقيل: أهل البدع والأهواء. وعن أبي أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه، ثم قال: «كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء: فقال له أبو غالب: أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بل سمعت من رسول الله ﷺ غير مرة. قال: فما شأنك دمعت عيناك! قال: رحمةً لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده، فقال: إن بأرضك منهم كثيراً فأعاذك الله منهم»[4]. وقيل: هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾.

﴿ففي رحمة الله﴾ ففي نعمته وهي الثواب المخلد.

فإنْ قلتَ: كيف موقع قوله: **﴿هم فيها خالدون﴾** بعد قوله: **﴿ففي رحمة الله﴾**؟ **قلتُ:** موقع الاستئناف، كأنّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾.

﴿تلك آيات الله﴾ الواردة في الوعد والوعيد، **﴿نتلوها عليك﴾** ملتبسة **﴿بالحق﴾** والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه. **﴿وما الله يريد ظلماً﴾** فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم أو ينقص من ثواب محسن، ونكر ظلماً. وقال: **﴿للعالمين﴾** على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح والرضا بها[5].

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾.

كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 9.

(2) سورة البقرة، الآية: 238.

(3) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، الحديث رقم: (3000)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في نكر الخوارج الحديث رقم: (176)، وأحمد في المسند 5/253، والحاكم = في المستدرك 2/149.

(4) إن أراد بهم: أهل السنة ومن وافقهم، كعادته، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة.

(5) يريد: أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان، وما لم يشا لم يكن، كما أجمع عليه السلف.

طارىء، ومنه قوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1] ومنه قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمّة﴾، كأنّه قيل: وجدتم خير أمّة. وقيل: كنتم في علم الله خير أمّة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنّكم خير أمّة موصوفين به. ﴿أخرجت﴾ أظهرت، وقوله: ﴿تامرون﴾ كلام مستانف بين به كونهم خير أمّة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم: ﴿وتؤمنون بالله﴾ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأنّ من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنّه غير مؤمن بالله. ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ مع إيمانهم بالله ﴿لكان خيراً لهم﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه؛ لأنّهم إنّما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرّتين ﴿منهم المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ المتمرّدون في الكفر.

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾.

﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى، بقول من طعن في الدين أو تهديداً ونحو ذلك. ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر. ﴿ثم لا ينصرون﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنّهم كانوا يؤذونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم، وتهديدهم بأنّهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به، مع أنّه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم، وأنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذلّ.

فإنْ قلتَ[2]: هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾؟ **قلتُ**: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنّه قيل: ثم أخبركم أنّهم لا ينصرون.

فإنْ قلتَ: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ **قلتُ**: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنّه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية إنّهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوّة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

فإنْ قلتَ: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ **قلتُ**: جملة الشرط والجزاء، كأنّه قيل: أخبركم أنّهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنّهم لا ينصرون.

فإنْ قلتَ: فما معنى التراخي في ثم؟ **قلتُ**: التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار.

فإنْ قلتَ: ما موقع الجملتين، أعني: ﴿منهم المؤمنون﴾ ﴿ولن يضروكم﴾؟ **قلتُ**: هما كلامان واردان على طرق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإنّ من شأنه كيت وكيت. ولذلك جاآ من غير عاطف.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾.

﴿بحبل من الله﴾ في محل النصب على الحال بتقدير إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله، وهو استثناء من أعم عام الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامّة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس. يعني: ذمّة الله وذمّة المسلمين. أي: لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ استوجبوه، ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله، أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. ثم قال: ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده، ليعلم أنّ الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله وأنّ سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر، ونحوه: ﴿مما خطيآتهم أغرقوا﴾، ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾.

لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾.

---

(1) سورة النساء، الآية: 96.

(2) قال أحمد: وهذا من الترقي في الوعد، عما هو أدنى، إلى ما هو أعلى؛ لأنهم وعدوا بتولية عدوّهم الأدبار، عند المقابلة، ثم ترقي الوعد إلى ما هو أتم في النجاح، من أنّ هؤلاء ﴿لا ينصرون﴾ = مطلقاً، ويزيد هذا الترقي بدخول ﴿ثم﴾ دون الواو، فإنها تستعار هنا للتراخي في الرتبة، لا في الوجود، كأنه قال: ثم هنا ما هو أعلى في الامتنان، وأسمع في رتب الإحسان، وهو: أنّ هؤلاء قوم ﴿لا ينصرون﴾ البتة، والله أعلم.

الضمير في ﴿ليسوا﴾ لأهل الكتاب أي: ليس أهل الكتاب مستوين. وقوله: ﴿من أهل الكتاب أمّة قائمة﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾[1] بياناً لقوله: ﴿كنتم خير أمّة﴾[2] أمّة قائمة مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام. وهم الذين أسلموا منهم. وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنّه أبين لما يفعلون وأدلّ على حسن صورة أمرهم. وقيل: عنى صلاة العشاء لأنّ أهل الكتاب لا يصلونها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنّه ليس من أهل الأديان أحد ينكر الله هذه الساعة غيركم»[3]. وقرأ هذه الآية. وقوله: ﴿يتلون﴾ و﴿يؤمنون﴾ في محل الرفع صفتان لأمّة، أي: أمّة قائمة. تالون مؤمنون، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله لأنّ إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً وكفرهم ببع الكتب والرسل دون بعض، ومن الإيمان باليوم الآخر لأنّهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنّهم كانوا مداهنين، ومن المسارعة في الخيرات لأنّهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها.

والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه، لأنّ من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي. ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿من﴾ جملة ﴿الصالحين﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

﴿فلن تكفروه﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: ﴿والله شكور حليم﴾[4] في معنى توفية الثواب، نفى عنه نقيض ذلك.

فإنْ قلتَ: لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ **قلتُ:** ضمن معنى الحرمان فكأنّه قليل: فلن تحرموه، بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرىء: يفعلوا ويكفروه بالياء والتاء. ﴿والله عليم بالمتقين﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنّه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾.

الصر[5]: الريح الباردة، نحو الصرصر. قال:

لا تعدلن أتاو بين تضربهم ... نكباء صر بأصحاب المحلات

كما قالت ليلى الأخيلية: ولم تغلب الخصم الألد وتملأ الجفان سديفاً يوم نكباء صرصر.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿كمثل ريح فيها صر﴾؟ **قلتُ:** فيه أوجه:

أحدهما: أنّ الصر في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرّة صر، كما تقول برد بارد على المبالغة.

والثاني: أن يكون الصر مصدراً في الأصل بمعنى البرد، فجيء به على أصله.

والثالث: أن يكون من قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[6] ومن قولك: إن ضعيني فلان ففي الله كاف وكافل. قال:

وفي الرحمٰن للضعفاء كافي

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً. وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم لأنّهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، وشبه بحرث ﴿قوم ظلموا أنفسهم﴾ فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم لأنّ الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ.

فإنْ قلتَ[7]: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح! **قلتُ:** هو من

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

(2) سورة آل عمران، الآية: 110.

(3) أخرجه أحمد في المسند 1/396، وابن حبان في كتاب الصلاة، باب: مواقيت الصلاة، الحديث رقم: (1530).

(4) سورة التغابن، الآية: 17.

(5) قال أحمد: كلها أوجه وجيهة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها، فتقول: إذا قلت مثلاً، إن ضيعني زيد، ففي عمر، وبعد الله كاف، فقولك: كاف، أثبت منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً له، فشخصت = نلك المطلق المجرّد بهذا المعين، فهي ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه، إذ المطلق بعض المقيد، فتنبه لهذه النكتة، فإنها لطيفة، والله الموفق.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(7) قال أحمد: أما إيراد السؤال، فلا ترتضى صيغته، لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل، المقدر بأنّ كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى، أن يذكر بصيغته الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة، والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض، ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإنّ أحدنا لو أورد سؤالاً على كلام إمام معتبر، بمرأى منه ومسمع، تحيل في أنواع التلطف =

التشبيه المركب الذي مرّ في تفسير قوله: ﴿كمثل الذي استوقد ناراً﴾، ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك الريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث. وقرىء: تنفقون بالتاء ﴿وما ظلمهم الله﴾ الضمير للمتّقين، على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقةً للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم. أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرىء: ولكن بالتشديد، بمعنى: ولكن أنفسهم يظلمونها هم، ولا يجوز أن يراد ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن، لأنّه إنما يجوز في الشعر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾.

بطانة الرجل ووليجته: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بسقوره ثقةً به، شبه ببطانة الثوب كما يقال فلان شعاري، وعن النبي ﷺ: «الأنصار شعار، والناس دثار»[1]. ﴿من دونكم﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، ويجوز تعلقه بلا تتخذوا وببطانة على الوصف، أي: بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم. ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ يقال: ألا في الأمر يألو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم: لا ألوك نصحاً ولا ألوك جهداً، على التضمين. والمعنى: لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه، والخبال الفساد. ﴿ودّوا ما عنتم﴾ ودّوا عنتكم، على أنّ ما مصدرية، والعنت شدّة الضرر والمشقة، وأصله انهياض العظم بعد جبره. أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشدّ الضرر وأبلغه. ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ لأنّهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك. وفي قراءة عبد الله: قد بدأ البغضاء. ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه. ﴿إن كنتم تعقلون﴾ ما بين لكم فعملتم به.

فإنْ قلتَ: كيف موقع هذه الجمل؟ **قلتُ:** يجوز أن يكون لا يألونكم صفةً للبطانة، وكذلك قد بدت البغضاء، كأنّه قيل: بطانة غير آليكم خبالاً بادية بغضاؤهم، وأما قد بيّنا فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة.

هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾.

﴿ها﴾ للتنبيه، و ﴿أنتم﴾ مبتدأ، و ﴿أولاء﴾ خبره: أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب، وقوله: ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل: أولاء موصول تحبونهم صلته. والواو في ﴿وتؤمنون﴾ للحال، وانتصابها من لا يحبونكم. أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم! وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونحوه فإنّهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون. ويوصف المغتاظ والنادم بعَضّ الأنامل والبنان والإبهام. قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواماً لئاماً أذلةً ... يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعا عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوّة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار. ﴿إنّ الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها.

فإنْ قلتَ: فكيف معناه على الوجهين؟ **قلتُ:** إذا كان داخلاً في جملة المقول فمعناه أخبرهم بما يسرونه من

= في إيراده، وبعد عن أمثاله هذه العبارة، ولعل الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارداً، لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه ومسمع، على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد، وأن يتأدّب في الإيراد، ثم نعود إلى جواب الزمخشري الثاني، وهو قوله: أن المراد: مثل إهلاك ما ينفقون، فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب، عن المطابقة المسؤول عنها، والسؤال باقٍ، وذلك أنّ الريح المشبه بها، ليست: الإهلاك، وإنما هي: المهلكة، ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذٍ يبعد هذا الوجه، وأقرب منه أن يقول أصل الكلام، والله أعلم مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم، فأصابته ريح فيها صر، فأهلكته ولكن خولف=

= هذا النظم في المثل المذكور، لفائدة جليلة، وهو تقديم ما هو أهم؛ لأن الريح التي هي مثل العذاب، ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث، فقدّمت عناية بذكرها، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة، بردّ الكلام إلى أصله على أيسر وجه، ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة، قوله تعالى: ﴿فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما﴾ الآية ومثله أيضاً: أعدت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه، والأصل أن تنكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وأن أدعم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة، والله الموفق.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف الحديث رقم: (4330)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم... الحديث رقم: (2443).

عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إنّ الله عليم مما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أنّ شيئاً من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم، ويجوز أن لا يكون ثَم قول وأن يكون قوله: ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ أمراً لرسول الله ﷺ بطيب النفس. وقوّة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾.

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع.

والسيئة: ما كان ضد ذلك، وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدّة.

فإنْ قلتَ[1]: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ **قلتُ**: المس مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة﴾[2] ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[3] ﴿إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾[4]. ﴿وإن تصبروا﴾ على عداوتهم، ﴿وتتقوا﴾ ما نهيتم عنه من موالاتهم، أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتّقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم. وقرىء: لا يضركم، من ضاره يضيره ويضركم، على أنّ ضمة الراء لاتباع ضمة الضاد، كقولك: مد يا هذا. وروى المفضل عن عاصم: لا يضركم بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أرادت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك. ﴿إن الله بما تعملون﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿محيط﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وقرئ بالياء، بمعنى أنّه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾.

﴿و﴾ انكر ﴿إذ غدوت من أهلك﴾ بالمدينة، وهو غدوه إلى أحد من حجرة عائشة رضي الله عنها. روي إنّ المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبيّ بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره، فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم. فقال ﷺ: «إني قد رأيت في منامي بقراً مذبحةً حولي فأوّلتها خيراً، ورأيت في نباب سيفي ثلماً فأولته هزيمةً، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم». فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى دخل، فلبس لأمته، فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه. وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال، فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوّم بها القدح، إن رأى صدراً خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا». ﴿تبوّئ المؤمنين﴾ تنزلهم، وقرأ عبد الله للمؤمنين بمعنى تسوي لهم وتهيىء. ﴿مقاعد للقتال﴾ مواطن ومواقف، وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار، واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿في مقعد صدق﴾ ﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾ من مجلسك وموضع حكمك. ﴿والله سميع﴾ لأقوالكم ﴿عليم﴾ بنياتكم وضمائركم.

إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾.

﴿إذ همت﴾ بدل من إذ غدوت، أو عمل فيه معنى سميع عليم. والطائفتان: حيان من الأنصار بنو سلمة من

---

(1) قال أحمد: يمكن أن يقال المس أقل تمكناً من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام، والله أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى تسؤهم، ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم، وانتهى الأمر فيها، إلى الحدّ الذي يرثي الشامت عنده منها، فهم لا يرثون لكم، ولا ينفكون عن حسدهم، ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 50.

(3) سورة النساء، الآية: 79.

(4) سورة المعارج، الآيتان: 20، 21.

الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان، خرج رسول الله ﷺ في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين. والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله ابن أبيّ بثلث الناس، وقال: يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا. فتبعهم عمرو بن حزم الأنصار فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهمّ الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﷺ[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدّة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطئها على احتمال المكروه. كما قال عمرو بن الأطنابة:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين فما ثبت مني إلا قول عمرو بن الأطنابة: ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية. والله تعالى يقول: ﴿**والله وليهما**﴾ ويجوز أن يراد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله.

فإنْ قلتَ: فما معنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنّه ولينا؟ **قلتُ:** معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة، بصحة الولاية، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها ـ لأنّها لم تكن عن عزيمة وتصميم ـ كانت سبباً لنزولهما. والفشل: الجبن والخور. وقرأ عبد الله: والله وليهم، كقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾[2]. أمرهم بألا يتوكلوا إلا عليه ولا يفوّضوا أمورهم إلا إليه.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾.

ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسّر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حال قلة وذلة.

والأذلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنّهم على ذلّتهم كانوا قليلاً. وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد. وقلتهم أنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان عدوّهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة.

وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً فسمي به. ﴿**فاتقوا الله**﴾ في الثبات مع رسوله ﴿**لعلكم تشكرون**﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته، أو لعلكم ينعم الله عليكم نعمةً أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنّه سبب له.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾.

﴿**إذ تقول**﴾ ظرف لنصركم، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أو بدل ثانٍ من إذ غدوت على أن يقوله لهم يوم أحد.

فإنْ قلتَ: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد، ولم تنزل فيه الملائكة؟ **قلتُ:** قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنّما قدّم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله. ومعنى ﴿**ألن يكفيكم**﴾ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وإنّما جيء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوّهم وشوكته كالآيسين من النصر.

بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾.

و﴿**بلى**﴾ إيجاب لما بعد لن، بمعنى: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية. ثم قال: ﴿**إن تصبروا وتتّقوا**﴾ يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسوَّمين للقتال، ﴿**ويأتوكم**﴾ يعني: المشركين، ﴿**من فورهم هذا**﴾ من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة. ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقيل: خرج من فوره، كما تقول من ساعته لم يلبث. والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿**يمددكم ربّكم**﴾ بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد أنّ الله يعجل نصرتكم وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم. وقرئ منزلين بالتشديد، ومنزلين بكسر الزاي، بمعنى: منزلين النصر. ومسوَّمين بفتح الواو وكسرها، بمعنى معلَّمين ومعلِّمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها، وعن مجاهد: مجزوزة أذناب خيلهم. وعن قتادة: كانوا على خيل بلق، وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «تسوّموا فإنّ الملائكة قد تسوّمت»[3].

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا

(1) السير والمغازي لابن إسحاق ص 324.

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

(3) ابن أبي شيبة 14/358، كتاب: المغازي، باب: غزوة بدر الكبرى.

مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾.

﴿وما جعله الله﴾ الهاء لأن يمدّكم، أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارةً لكم بأنّكم تنصرون. ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارةً بالنصر وطمأنينةً لقلوبهم. ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن ذلك مما يقوي به الله وجاء النصرة والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين. ﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب في حكمه، ﴿الحكيم﴾ الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم. ﴿أو يكبتهم﴾ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة، ﴿فينقلبوا خائبين﴾ غير ظافرين بمبتغاهم، ونحوه: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾[1].

ويقال: كبته، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة. وقيل: في قول أبي الطيب:

لا كبت حاسداً وأرى عدواً

هو من الكبد والرئة واللام متعلقة بقوله: ولقد نصركم الله، أو بقوله: وما النصر إلا من عند الله.

لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾.

﴿أو يتوب﴾ عطف على ما قبله. ﴿وليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض. والمعنى: أنّ الله مالك أمرهم فإما يهلكهم أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنّما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وقيل: إن يتوب، منصوب بإضمار أن، وأن يتوب في حكم اسم معطوف بـ «أو» على الأمر أو على شيء، أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل: أو بمعنى إلا أنّ، كقولك: لألزمنك أو تعطيني حقي، على معنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل: شجه عتبة بن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربّهم[2] فنزلت. وقيل: أراد أن يدعو عليهم، فنهاه الله تعالى لعلمه أنّ فيهم من يؤمن.

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾.

وعن الحسن[3]: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بالتوبة، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين. ﴿ويعذب من يشاء﴾ ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب. وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً، وإتباعه قوله: ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾[4] تفسير بيّن لمن يشاء وأنهم المتوب عليهم أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء ويطيبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم: يهب الذنب الكبير لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾.

﴿لا تأكلوا الربوا أضعافاً مضاعفةً﴾ نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه، كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل، فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون.

وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾.

﴿واتقوا النار التي أعدّت للكافرين﴾ كان أبو حنيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمدّ ذلك بما اتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله، ومن تأمّل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى. وفي ذكره تعالى لعلّ وعسى في نحو هذه المواضع، وإن قال الناس ما قالوا، ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى وصعوبة إصابة رضا الله وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 5/ 291 الحديث رقم: (9649)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: المجن ومن يترس بترس صاحبه الحديث رقم: (2903)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد الحديث رقم: (4618).

(3) قال أحمد: هذه الآية واردة في الكفار، ومعتقد أهل السنة: أنّ المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر، والرجوع إلى = الإيمان، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين، وعندهم: أنّ المؤمن التائب من كفره، هو: المعني في قولهم: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ كما قاله الزمخشري، وأما تسلقه من ذلك على تعميم هذا الحكم، وتعديته إلى الموحدين، فمن التعامي والتصامّ حقيقة، وإلا فهو أحذق من ذلك، وأما نسبته إلى أهل السنة: التعامي، والتصام، والهوى، والبدعة، والافتراء، فالله حسيبه في ذلك والسلام.

(4) سورة آل عمران، الآية: 128.

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾.

في مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو، وقرأ الباقون بالواو، وتنصره قراءة أبيّ وعبد الله: وسابقوا. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة الإقبال على ما يستحقان به. **﴿عرضها السمٰوات والأرض﴾** أي: عرضها عرض السمٰوات والأرض، كقوله: ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشبّهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه، وخصّ العرض لأنّه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: بطائنها من إستبرق. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسبع سمٰوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض.

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾.

﴿في السراء والضراء﴾ في حال الرخاء واليسر، وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكي عن بعض السلف أنّه ربّما تصدّق ببصلة. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّها تصدّقت بحبة عنب[1]، أو في جميع الأحوال لأنّها لا تخلو من حال مسرّة ومضرّة لا تمنعهم حال فرح وسرور ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنّه لا يدع الإحسان. وافتتح بذكر الإنفاق لأنّه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنّه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة: إذا ملأها وشدّ فاها، وكظم البعير إذا لم يجتر، ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»[2]. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّ خادماً لها غاظها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء[3]. **﴿والعافين عن الناس﴾** إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروي: ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا[4]. وعن ابن عيينة: أنّه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه. وعن النبي ﷺ: «إنّ هؤلاء في أمّتي قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت»[5]. **﴿والله يحب المحسنين﴾** يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وأن تكون للعهد فتكون إشارةً إلى هؤلاء.

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾.

﴿والذين﴾ عطف على المتّقين أي: أعدّت للمتقين وللتائبين. وقوله: أولئك، إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك. **﴿فاحشة﴾** فعلة متزايدة القبح، **﴿أو ظلموا انفسهم﴾** أو أذنبوا أي ذنب كان مما يؤاخذون به. وقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة. **﴿ذكروا الله﴾** تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه، **﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾** فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين[6]. **﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾** وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وإنّه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأنّ عدله يوجب المغفرة للتائب؛ لأنّ العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو[7] والتجاوز، وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط، وأنّ الذنوب وإن جلت فإنّ عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى: أنّه وحده معه مصححات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. **﴿ولم يصرّوا﴾** ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبي ﷺ: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[8]. وروي: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»[9]. **﴿وهم يعلمون﴾** حال من فعل الإصرار، وحرف النفي منصب عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها وبالوعيد عليها؛ لأنّه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح. وفي هذه الآيات بيان قاطع أنّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرّون، وأنّ الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرّين[10]، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربّه.

---

(1) قال الزيلعي أخرجه ابن سعد في الطبقات، وابن رنجويه في كتابه: الأموال، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب: الآنية.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من كظم غيظاً الحديث رقم: (4777)، وأحمد في المسند 3/438.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (8313).

(4) الديلمي في مسند الفردوس. والثعالبي في تفسيره.

(5) لم يخرجه الزيلعي.

(6) لعله: عازمين على عدم العود.

(7) أما سمعاً، فباتفاق، وأمّا عقلاً، فعند المعتزلة فقط.

(8) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار الحديث رقم: (1514)، والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (107) الحديث رقم: (3559).

(9) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 10238).

(10) يعني: أنّ الإصرار كبيرة، وفاعل الكبيرة يخلد في النار، لكن هذا عند المعتزلة، وخالف أهل السنة؛ لانه مؤمن عندهم، والمؤمن لا يخلد فيها، وتحقيقه في علم التوحيد.

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾.

قال: ﴿أجر العاملين﴾ بعد قوله: جزاؤهم، لأنهما في معنى واحد، وإنّما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أنّ ذلك جزاء واجب على عمل وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون[1]. وروي: أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسىٰ: ما أقلّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي. وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة. وعن الحسن رضي الله عنه: يقول الله تعالى يوم القيامة: «جوزوا الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم». وعن رابعة البصرية رضي الله عنها أنها كانت تنشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾.

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يريد ما سنّه الله في الأمم المكذبين من وقائعه كقوله: ﴿وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾[2] ﴿ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التي قد خلت من قبل﴾[3].

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾.

﴿هذا بيان للناس﴾ إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثّهم على النظر في سوء عواقب المكذّبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ يعني: أنّه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتّقوا من المؤمنين، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قد خلت﴾، جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين. ويكون قوله: ﴿هذا بيان﴾، إشارة إلى ما لخّص وبين من أمر المتّقين والتائبين والمصرّين.

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾.

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ للمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني: ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي: لا يورثنكم ذلك وهناً وجبناً، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح. ﴿وأنتم الأعلون﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو وأنتم الأعلون شأناً لأنّ قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، ولأنّ قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي: وأنتم الأعلون في العاقبة ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[4] ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهي، بمعنى: ولا تهنوا إن صح إيمانكم، على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه أو بالأعلون، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾.

وقرىء: قرح بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف وقيل: هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها. وقرأ أبو السمال: قرح بفتحتين، وقيل: القرح والقرح كالطرد والطرد، والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه: ﴿فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾[5] وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: ﴿قرح مثله﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ **قلتُ:** بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذٍ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾[6]. ﴿وتلك الأيام﴾ تلك مبتدأ، والأيام صفته، و﴿نداولها﴾ خبره. ويجوز أن يكون تلك الأيام مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، والمراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة، نداولها نصرفها بين الناس. نديل تارةً لهؤلاء وتارةً لهؤلاء، كقوله: وهو من أبيات الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا ... ويوماً نساء ويوماً نسر

ومن أمثال العرب: الحرب سجال. وعن أبي سفيان أنّه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعةً، ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال. فقال عمر

---

(1) يريد بهم: أهل السنة حيث قالوا: لا يجب على الله شيء.

(2) سورة الأحزاب، الآيتان: 61 ـ 62.

(3) سورة الفتح، الآيتان: 22 ـ 23.

(4) سورة الصافات، الآية: 173.

(5) سورة النساء، الآية: 104.

(6) سورة آل عمران، الآية: 152.

رضي الله عنه: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فقال: إنّكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا والمداولة مثل المعاورة[1]. وقال:

يرد المياه فلا يزال مداولاً في الناس بين تمثل وسماع

يقال: داولت بينهم الشيء فتداولوه. ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعلل محذوفاً، معناه: وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. وقيل: معناه ليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الذات.

والثاني: أن تكون العلة محذوفة وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله؛ وإنّما حذف لدلالة الإذن بأنّ المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصرهم أنّ العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب ولا يشعر أنّ لله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه. ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد، أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يبتليه به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾[2] ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض، ومعناه: والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله الممحصين، من الذنوب.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾.

والتمحيص: التطهير والتصفية. ﴿ويمحق الكافرين﴾ ويهلكهم، يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز، والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم، وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾.

﴿أم﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿ولما يعلم الله﴾ بمعنى[3]: ولما تجاهدوا لأنّ العلم متعلق بالمعلوم، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه، لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع، فدلّ على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول: وعدني أن يفعل كذا، ولما تريد ولم يفعل وأنا أتوقع فعله. وقرىء: ولما يعلم الله بفتح الميم، وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمن فحذفها. ﴿ويعلم الصابرين﴾ نصب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: ويعلم بالرفع، على أنّ الواو للحال، كأنّه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾.

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدّته وصعوبة مقاساته، ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي: رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده.

فإنْ قلتَ: كيف يجوز تمني الشهادة وفي تمنيها تمني غلبة الكافر المسلم؟ **قلتُ:** قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أنّ من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء ولا يخطر بباله أنّ فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقاً لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حين نهض إلى مؤتة وقيل له: ردّكم الله:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرةً وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مرّوا على جدثي أرشدك الله من غاز وقد رشدا

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/297.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) قال أحمد: التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم، خاص بعلم الله تعالى؛ لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء، ما عدم ذلك الشيء ضرورة، أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه، فاستقام التعبير عن نفي الشيء، بنفي تعلق العلم القديم، بوجوده المصحح للملازمة، ولا كذلك علم المخلوقين، فإنه لا يعبر عن نفي شيء تعلق علم الخلق به، لجواز وجود ذلك الشيء غير معلوم للخلق، والزمخشري يظهر من كلامه صحة هذا التعبير = مطلقاً، ويعتقد الملازمة المذكورة عامة، فلذلك قال في قول فرعون: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ أنه عبر عن نفي المعلوم، بنفي العلم؛ لأنه من لوازمه، وسياتي بيان أن الزمخشري وهم في هذا الموضع، وإلا فهو يحاشي عن الوقوع في مثله اعتقاداً، والله أعلم، وإنما عبر فرعون بذلك تلبيساً على ملئه، وتتميماً لدعوى الوهيته الكاذبة، بأنه لا يعزب عن علمه شيء، فلو كان إله سواه على دعواه، لتعلق علمه به، وهذا يعد من حماقات فرعون، ودعاويه الفارغة، والله الموفق.

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله، فذب عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنّه رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً. وصرخ صارخ: ألا أنّ محمداً قد قتل. وقيل: كان الصارخ الشيطان. ففشا في الناس خبر قتله فانكفؤا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: إليّ عباد الله، حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فنزلت. وروي أنّه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان قتل محمد فإنّ رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إنّي أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين أنّه مرّ بأنصاري يتشحط في دمه فقال: يا فلان أشعرت أنّ محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾.

والمعنى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** فسيخلو كما خلوا، وكما أن اتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه[1]؛ لأنّ الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه، **﴿أفإن مات﴾** الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أنّ خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه.

فإنْ قلتَ: لم ذكر القتل وقد علم أنّه لا يقتل؟ **قلتُ:** لكونه مجوزاً عند المخاطبين.

فإنْ قلتَ: أما علموه من ناحية قوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[2]. **قلتُ:** هذا مما يختص بالعلماء منهم ذوي البصيرة، ألا ترى أنّهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنّه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم.

والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل: الارتداد وما ارتد أحد من المعلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، يجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ﷺ وإسلامه. **﴿فلن يضر الله شيئاً﴾** فما ضرّ إلا نفسه، لأنّ الله تعالى لا يجوز عليه المضارّ والمنافع. **﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾** الذين لم ينقلبوا، كأنس بن النضر وأضرابه، وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أن الحذر لا ينفع وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خوّض المهالك واقتحم المعارك، والثاني ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدوّ والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهزةً للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل، **﴿كتاباً﴾** مصدر مؤكد، لأنّ المعنى: كتب الموت كتاباً **﴿مؤجلاً﴾** موقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، **﴿ومن يرد ثواب الدنيا﴾** تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد **﴿نؤته منها﴾** أي من ثوابها، **﴿وسنجزي﴾** الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد. وقرىء: يؤته وسيجزي بالياء فيهما.

قرىء: قاتل وقتل بالتشديد، والفاعل ربيون أو ضمير النبي، و **﴿معه ربيون﴾** حال عنه بمعنى: كائناً معه ربيون، والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأوّل. وعن سعيد بن جبير رحمه الله: ما سمعنا بنبي قتل في القتال. والربيون الربانيون. وقرئ بالحركات الثلاث: فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب. وقرىء: فما وهِنوا بكسر الهاء، والمعنى: **﴿فما وهنوا﴾** غند قتل النبي، **﴿وما ضعفوا﴾** عن الجهاد بعده، **﴿وما استكانوا﴾** للعدوّ وهذا تعريض مما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ! ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبيّ في طلب الأمان من أبي سفيان.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾.

﴿وما كان قولهم إلا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضماً لها واستقصاراً، والدعاء بالاستغفار منها مقدّماً على طلب

(1) لعله: الرسول ﷺ.

(2) سورة المائدة، الآية: 67.

تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدوّ ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع وأقرب إلى الاستجابة.

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾.

﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدّمه وأنّه هو المعتدّ به عنده، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾.

﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ قال عليّ رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. وعن الحسن رضي الله عنه: إن تستنصحوا اليهود والنصارى وتقبلوا منهم؛ لأنّهم كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبيا حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنّما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم **﴿يردّوكم﴾** إلى دينهم، وقيل: هو عام في جميع الكفار وإنّ على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء، ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجرّوهم إلى موافقتهم.

بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾.

﴿بل الله مولاكم﴾ أي: ناصركم لا تحتاجون معه إلى نصرة أحد وولايته. وقرئ بالنصب على بل أطيعوا الله مولاكم.

سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾.

﴿سنلقي﴾ قرئ بالنون والياء. **﴿والرعب﴾** بسكون العين وضمها، قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا. **﴿بما أشركوا﴾** بسبب إشراكهم أي: كان السبب في إلقاء الله الرّعب في قلوبهم إشراكهم به. **﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾** آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة.

فإنْ قلتَ[1]: كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الإشراك! **قلتُ**: لم يعن أن هناك حجة إلا أنّها لم تنزل عليهم لأنّ الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنّما المراد نفي الحجة ونزولها جميعاً، كقوله: ولا ترى الضب بها ينحجر.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾.

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: **﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم﴾**[2] ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾**[3] فلما فشلوا وتنازعوا لم يرعبهم، وقيل: لما رجعوا إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت. وذلك أنّ رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا كانت الدولة للمسلمين أو عليهم. فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم.

يحسونهم أي: يقتلونهم قتلاً ذريعاً. حتى إذا فشلوا، والفشل: الجبن وضعف الرأي، وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا. وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله ﷺ، فمن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة، وهم المعنيون بقوله: **﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾** ونفر أعقابهم ينهبون وهم الذين أرادوا الدنيا. فكر المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبوراً وكانت صبا حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: **﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾** ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها. **﴿ولقد عفا عنكم﴾** لما علم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر

---

(1) قال أحمد: إنما يرد هذا السؤال، لو أفهم ظاهر اللفظ أن ثَم حجة، وليس في ظاهره ما يفهم ذلك، ولو كانت الآية كقول القائل: بما أشركوا بالله، ما لم ينزل سلطانه، بإضافة السلطان إلى ما أشركوا به، لكان للسائل مقال، ولكان كقول القائل:

على لاحب لا يهتدي بمناره

فإنه بإضافة المنار إليه، يوهم أنّ فيه مناراً، فيحتاج الناظر إلى = حمله على معنى لا منار فيه، فيهتدي به، ولو أطلق الشاعر فقال: على لاحب لا يهتدي فيه بمنار مثلاً، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

(2) سورة آل عمران، الآية: 125.

(3) سورة آل عمران، الآية: 151.

رسول الله ﷺ، **﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾** يتفضل عليهم بالعفو، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم؛ لأنّ الابتلاء رحمة كما أنّ النصرة رحمة.

فإنْ قلتَ: أين متعلق حتى إذا! قلتُ: محذوف تقديره حتى إذا فشلتم منعكم نصره، ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

❁ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾.

﴿إذ تصعدون﴾ نصب بصرفكم، أو بقوله: **﴿ليبتليكم﴾**[1] أو بإضمار انكر.

والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه، يقال: صعد في الجبل، وأصعد في الأرض. يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تصعدون، يعني: في الجبل. وتعضد الأولى قراءة أبيّ: إذ تصعدون في الوادي. وقرأ أبو حيوة: تصعدون بفتح التاء وتشديد العين من تصعد في السلم. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تلون بواو واحدة، وقد ذكرنا وجهها. وقرىء: يصعدون ويلوون بالياء. **﴿والرسول يدعوكم﴾** كان يقول: إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة. **﴿في أخراكم﴾** في ساقتكم وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول في أوّلهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى. **﴿فأثابكم﴾** عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله **﴿غماً﴾** حين صرفكم عنهم وابتلاكم **﴿بـ﴾**سبب **﴿غم﴾** أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له، أو غماً مضاعفاً غماً بعد غم وغماً متصلاً بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، **﴿لكيلا تحزنوا﴾**، لتتمرنوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز أن يكون الضمير في فأثابكم من رسول أي: فآساكم في الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما، غمه ما نزل بكم فأثابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله. ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنّما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾.

وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم. وعن أبي طلحة رضي الله عنه: غشينا النعاس ونحن في مصافنا فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه، وما أحد إلا ويميل تحت جحفته[2] وعن ابن الزبير رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتدّ علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم، والله إنّي لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا[3].

والأمنة: الأمن، وقرىء: أمنة بسكون الميم، كأنّها المرة من الأمن. **﴿نعاساً﴾** بدل من أمنةً، ويجوز أن يكون هو المفعول، وأمنة حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رأيت راكباً رجلاً، أو مفعولاً له بمعنى: نعستم أمنة، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة، أو على أنّه جمع آمن كبار وبررة. **﴿يغشى﴾** قرىء: بالياء والتاء، رداً على النعاس أو على الأمنة. **﴿طائفة منكم﴾** هم أهل الصدق واليقين، **﴿وطائفة﴾** هم المنافقون **﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾** ما بهم إلا همّ أنفسهم لا همّ الدين ولا همّ الرسول ﷺ والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حلّ بهم من الهموم والأشجان فهم في التشاكي والتباث. **﴿غير الحق﴾** في حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به، و**﴿ظنّ الجاهلية﴾** بدل منه. ويجوز أن يكون المعنى: يظنون بالله ظنّ الجاهلية وغير الحق تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك، وظنّ الجاهلية كقولك: حاتم الجود ورجل صدق، يريد الظن المختص بالملة الجاهلية. ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله. **﴿يقولون﴾** لرسول الله ﷺ يسألونه **﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾** معناه: هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدوّ. **﴿قل إنّ الأمر كله لله﴾** ولأوليائه المؤمنين، وهو النصر والغلبة **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾**[4] **﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾**[5]. **﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾** معناه: يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 152.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿أمنة نعاساً﴾ الحديث رقم: (4562).

(3) أخرجه البيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة، وإسحاق بن راهويه = والبزار في مسنديهما، والزيلعي 1/233.

(4) سورة المجادلة، الآية: 21.

(5) سورة الصافات، الآية: 173.

شيء؟ سؤال المؤمنين المسترشدين، وهم فيما يبطنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم: أنّ الأمر كله لله. ﴿**لو كان لنا من الأمر شيء**﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمد أنّ الأمر كله لله ولأوليائه وأنّهم الغالبون لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة. ﴿**قل لو كنتم في بيوتكم**﴾ يعني: من علم الله منه أنّه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم ﴿**لبرز**﴾ من بينكم ﴿**الذين**﴾ علم الله أنّهم يقتلون ﴿**إلى مضاجعهم**﴾ وهي مصارعهم، ليكون ما علم الله أنّه يكون. والمعنى: أنّ الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين وكتب مع ذلك أنّهم الغالبون لعلمه أنّ العاقبة هي الغلبة لهم، وأنّ دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأنّ ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة. وقيل: معناه: هل لنا من التدبير من شيء، يعنون: لم نملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأي عبد الله بن أبيّ وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة. قل: إنّ التدبير كله لله، يريد أنّ الله عزّ وجلّ قد دبر الأمر كما جرى ولو أقمتم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم وقرىء: كتب عليهم القتال وكتب عليهم القتل على البناء للفاعل، ولبرز بالتشديد وضم الباء، ﴿**وليبتلي الله**﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك، أو فعل ذلك لمصالح جمة للابتلاء والتمحيص.

فإنْ قلتَ: كيف مواقع الجمل التي بعد قوله: ﴿**وطائفة**﴾؟ **قلتُ**: قد أهممتهم صفة لطائفة، ويظنون صفة أخرى أو حال بمعنى قد أهمتهم أنفسهم ظانين، أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها، ويقولون بدل من يظنون

فإنْ قلتَ[1]: كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلاً من الإخبار بالظن؟ **قلتُ**: كانت مسألتهم صادرة عن الظنّ فلذلك جاز إبداله منه، ويخفون حال من يقولون، وقل إنّ الأمر كله لله اعتراض بين الحال وذي الحال، ويقولون بدل من يخفون، والأجود أن يكون استئنافاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾.

﴿**استزلهم**﴾ طلب منهم الزلل ودعاهم إليه. ﴿**ببعض ما كسبوا**﴾ من ذنوبهم، ومعناه: إنّ الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنّهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوباً، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا. وقيل: استزلال الشيطان إياهم هو التولي، وإنّما دعاهم إليه بذنوب قد تقدّمت لهم لأنّ الذنب يجر إلى الذنب كما أنّ الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة، وقيل: بعض ما كسبوا هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه، فجرهم ذلك إلى الهزيمة. وقيل: ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية.

فإنْ قلتَ: لم قيل ﴿**ببعض ما كسبوا**﴾؟ **قلتُ**: هو كقوله تعالى: ﴿**ويعفوا عن كثير**﴾[2] ﴿**ولقد عفا الله عنهم**﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿**إنّ الله غفور**﴾ للذنوب ﴿**حليم**﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾.

﴿**وقالوا لإخوانهم**﴾ أي: لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾[3] ومعنى الأخوّة، اتفاق الجنس أو النسب. ﴿**إذا ضربوا في الأرض**﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، ﴿**لو كانوا غزى**﴾ جمع غازٍ كعافٍ وعفى، كقوله: عفى الحياض أجون. وقرئ بتخفيف الزاي على حذف التاء من غزاة.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: إذا ﴿**ضربوا**﴾ مع ﴿**قالوا**﴾؟ **قلتُ**: هو على حكاية الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض.

فإنْ قلتَ: ما متعلق ﴿**ليجعل**﴾؟ **قلتُ**: قالوا، أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ﴿**حسرة في قلوبهم**﴾ على أنّ اللام مثلها في ﴿**ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾ أو لا تكونوا، بمعنى: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله حسرةً في قلوبهم خاصةً ويصون منها قلوبكم.

فإنْ قلتَ: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ **قلتُ**: معناه أنّ الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغمّ والحسرة في قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبةً، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق

---

(1) قال أحمد: ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، فإن هذا السؤال استفهام والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصدق، ونقيضه ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، يعني في قولكم أتجعل فيها من= = يفسد فيها، فأجرى استفهامهم مجرى الخبر لاستلزامه الإخبار، بأن هذا النوع الإنساني ليس بمعصوم عن الفساد، وسفك الدماء، إلا من عصمه الله تعالى منهم، والله أعلم.

(2) سورة المائدة، الآية: 15.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 11.

الصدور فعل الله عز وجل، كقوله: ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء﴾[1] ويجوز أن يكون ذلك إشارةً إلى ما دلّ عليه النهي، أي: لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرةً في قلوبهم، لأنّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادّتهم مما يغمهم ويغيظهم. ﴿والله يحيي ويميت﴾ رد لقولهم، أي: الأمر بيده قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد كما يشاء. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنّه قال عند موته: ما فيّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء[2]. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا تكونوا مثلهم، وقرئ بالياء، يعني: الذين كفروا.

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾.

﴿المغفرة﴾ جواب القسم وهو سادّ مسدّ جواب الشرط، وكذلك ﴿إلى الله تحشرون﴾[3]، كذب الكافرين أوّلاً في زعمهم أنّ من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنّه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: لئن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله فإنّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت ﴿في سبيل الله خير مما تجمعون﴾ من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء، وقرئ بالياء، أي: يجمع الكفار.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾.

﴿إلى الله تحشرون﴾ إلى الرحيم الواسع الرحمة المثيب العظيم الثواب تحشرون، ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه. وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي. وقرئ: متم بضم الميم وكسرها، من مات يموت، ومات يمات.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾.

ما مزيدة للتوكيد والدلالة على أنّ لينه لهم ما كان إلا برحمة منّ الله، ونحوه: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم﴾[4]. ومعنى الرحمة: ربطه على جاشه وتوفيقه المرفق والتلطف بهم، حتى أثابهم غماً بغم، وآساهم بالمباءة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه. ﴿ولو كنت فظاً﴾ جافياً ﴿غليظ القلب﴾ قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾ لتفرّقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم. ﴿فاعف عنهم﴾ فيما يختص بك، ﴿واستغفر لهم﴾ فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، ﴿وشاورهم في الأمر﴾ يعني: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي، لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطييب نفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضي الله تعالى عنه: قد علم الله أنّه ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده. وعن النبيّ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»[5]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورةً من أصحاب الرسول ﷺ[6]. وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم. وقرئ: وشاورهم في بعض الأمر، ﴿فإذا عزمت﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى، ﴿فتوكل على الله﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح؛ فإنّ ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله، لا أنت ولا من تشاور. وقرئ: فإذا عزمت بضم التاء، بمعنى: فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل عليّ ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾.

﴿إن ينصركم الله﴾ كما نصركم يوم بدر، فلا أحد يغلبكم. ﴿وإن يخذلكم﴾ كما خذلكم يوم أحد، ﴿فمن ذا الذي ينصركم﴾. فهذا تنبيه على أنّ الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه، ونحوه: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾[7] ﴿من بعده﴾ من بعد خذلانه، أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان، تريد إذا جاوزته. وقرأ عبيد بن عمير: وإن يخذلكم، من أخذله إذا جعله مخذولاً. وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر منّ الله تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان. ﴿وعلى الله﴾ وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنّه لا ناصر سواه، ولأنّ إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه.

وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 125.

(2) [راجع البداية والنهاية لابن كثير 7/126].

(3) سورة آل عمران، الآية: 158.

(4) سورة المائدة، الآية: 13.

(5) [قال الزيلعي غريب، لم أجده إلا من قول الحسن 1/234].

(6) = أخرجه عبد الرزاق في المصنف 5/331 الحديث رقم: (9720)، والترمذي تعليقاً، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في المشورة، وابن حبان في كتاب: السير، باب: الموادعة والمهادنة الحديث رقم: (4872).

(7) = سورة فاطر، الآية: 2.

كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾.

يقال: غلّ شيئاً من المغنم غلولاً وأغلّ إغلالاً إذا أخذه في خفية، يقال: أغلّ الجازر إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد، والغل الحقد الكامن في الصدر. ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»[1]. وقوله ﷺ: «هدايا الولاة غلول»[2]، وعنه: «ليس على المستعير غير المغل ضمان»[3]، وعنه: «لا إغلال ولا إسلال»[4]. ويقال: أغله إذا وجده غالاً، كقولك: أبخلته وأفحمته، ومعنى: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ وما صحّ له ذلك، يعني: أنّ النبوة تنافي الغلول. وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأوّل، لأنّ معناه: وما صحّ له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً، وفيه وجهان[5]:

أحدهما: أن يبرأ رسول الله ﷺ من ذلك وينزه وينبه على عصمته بأنّ النبوّة والغلول متنافيان لئلا يظن به ظان شيئاً منه وأن لا يستريب به أحد، كما روي: أنّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلّ رسول الله ﷺ أخذها[6]. وروي: أنّها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له، وأنّ لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر. فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم».

والثاني: أن يكون مبالغةً في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي: أنّه بعث طلائع فغنمت غنائم، فقسمها ولم يقسم للطلائع[7]. فنزلت: يعني: وما كان لنبي أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية. وسمى حرمان بعض الغزاة غلولاً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر. ولو قرىء: أن يغل من أغلّ، بمعنى: غلّ، لجاز: ﴿يأت بما غلّ يوم القيامة﴾ يأت بالشيء الذي غله بعينه يحمله، كما جاء في الحديث: جاء يوم القيامة يحمله على عنقه[8]. وروي: «ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببعير له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء، فينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك»[9]. وعن بعض جفاة الأعراب: أنّه سرق نافجة مسك فتليت عليه الآية، فقال: إذاً أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل. ويجوز أن يراد: يأت بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه.

فإنْ قلتَ: هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل به! **قلتُ:** جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت لأنّه إذا علم الغال أنّ كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فموفى جزاءه علم أنّه غير متخلص من بينهم من عظم ما اكتسب. ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: يعدل بينهم في الجزاء كل جزاؤه على قدر كسبه.

هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾.

﴿هم درجات﴾ أي: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، كقوله:

أنصب للمنية تعتريهم رجالى أم هم درج السيول

وقيل: ذوو درجات، والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها.

لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَۚ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾.

﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخص المؤمنين منهم لأنّهم هم المنتفعون بمبعثه. ﴿من أنفسهم﴾ من جنسهم عربياً مثلهم، وقيل: من ولد إسمٰعيل كما أنّهم من ولده.

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في عمال الصدقة الحديث رقم: (1810)، والحديث عن أبي حميد الساعدي، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الهبة، باب: من لم يقبل الهدية لعلة الحديث رقم: (2597) ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال الحديث رقم: (4715).

(2) كشف الأستار، كتاب: الإمارة، باب: في هدايا العمال الحديث رقم: (1599)، وحديث جابر، أخرجه عبد الرزاق في المصنف 8/147 الحديث رقم: (14665).

(3) أخرجه البيهقي في سننه في كتاب: العارية.

(4) أخرجه الدارمي في السنن 2/303، كتاب: السير، باب: في الغال إذا جاء بما غل به، حديث رقم: (2491)، وأحمد في المسند 4/325، وأبو داود في السنن، كتاب الجهاد، باب: في صلح العدو، الحديث رقم: (2766).

(5) قال أحمد رحمه الله: حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له، ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي، في أمثال قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي = أن تكون له أسرى﴾ ﴿ما كان لنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ إلى غير ذلك على أنّ الزمخشري حاف في العبارة، إذ يقول عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً، وتقبيحاً، وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، فإن عادة لطف الله تعالى برسوله الله ﷺ في التأديب أن يكون ممزوجاً بغاية التخفيف، والتعطف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ قال بعض العلماء: بدأه بالعفو قبل العتب، ولو لم يبدأه بالعفو، لانفطر قلبه ﷺ.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (3009)، والواحدي في أسباب النزول ص 73.

(7) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 73ـ 74. وابن أبي شيبة في 12/413، كتاب: الجهاد، باب: ليس له شيء إذا قدم بعد الوقعة.

(8) نكره السيوطي في الدر المنثور (2/92) وذكره ابن كثير في «تفسيره» (2/135).

(9) أخرجه الطبري في تفسيره، وأبو يعلى الموصلي.

فإنْ قلتَ: فما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم! **قلتُ:** إذا كان منهم كان اللسان واحداً فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿وإنّه لذكر لك ولقومك﴾[1]. وفي قراءة رسول الله ﷺ وقراءة فاطمة رضي الله عنها من أنفسهم»، أي: من أشرفهم. لأنّ عدنان ذروة ولد إسمٰعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف ذروة مضر، ومدركة ذروة خندف، وقريش ذروة مدركة، وذروة قريش محمد ﷺ. وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسمٰعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل. وقرىء: لمن منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم، وفيه وجهان: أن يراد لمن منَّ الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم فحذف لقيام الدلالة، أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لمن منَّ الله على المؤمنين وقت بعثه. **﴿يتلو عليهم آياته﴾** بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي **﴿ويزكيهم﴾** ويطهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملابسة المحرمات وسائر الخبائث. وقيل: ويأخذ منهم الزكاة، **﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾** القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم. **﴿وإن كانوا من قبل﴾** من قبل بعثة الرسول **﴿لفي ضلال﴾**، إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإنّ الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال **﴿مبين﴾** ظاهر لا شبهة فيه.

أَوَ لَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾.

﴿أصابتكم مصيبة﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم، **﴿قد أصبتم مثليها﴾** يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين. ولما نصب بـ **﴿قلتم﴾** و**﴿أصابتكم﴾** في محل الجرّ بإضافة لما إليه، وتقديره: أقلتم حين أصابتكم و**﴿أنى هذا﴾** نصب لأنّه مقول، والهمزة للتقرير والتقريع.

فإنْ قلتَ: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ **قلتُ:** على ما مضى من قصة أحد من قوله: ولقد صدقكم الله وعده، ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف، كأنّه قيل: أفعلتم كذا وقلتم حينئذٍ كذا، أنى هذا، من أين هذا؟ كقوله تعالى: أنّى لك هذا؟ لقوله: **﴿من عند أنفسكم﴾**، وقوله: **﴿من عند الله﴾** والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم لاختياركم الخروج من المدينة أو لتخليتكم عن المركز. وعن عليّ رضي الله عنه: لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم. **﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾** فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيبكم تارةً ويصيب منكم أخرى.

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾.

﴿وما أصابكم﴾ يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين، **﴿فـ﴾** هو كائن **﴿بإذن الله﴾**، أي: بتخليته استعار الإذن لتخليته الكفار، وأنّه لم يمنعهم منهم ليبتليهم لأنّ الآذن محل بين المأذون له ومراده

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾.

﴿وليعلم﴾ وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء. **﴿وقيل لهم﴾** من جملة الصلة عطف على نافقوا؛ وإنّما لم يقل: فقالوا، لأنّه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال. كأنّه قيل: فماذا قالوا لهم؟ فقيل: قالوا لو نعلم. ويجوز أن تقتصر الصلة على نافقوا، ويكون **﴿وقيل لهم﴾** لهم كلاماً مبتدأ، قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غمّ الآخرة دفعاً عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم. وذلك ما روي: أنّ عبد الله بن أبيّ انخزل مع حلفائه، فقيل له، فقال ذلك. وقيل: **﴿أو ادفعوا﴾** العدوّ بتكثيركم سواد المجاهدين، وإن لم تقاتلوا لأنّ كثرة السواد مما يروع العدوّ ويكسر منه. وعن سهل بن سعد الساعدي وقد كف بصره: لو أمكنني لبعت داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوّهم. قيل: وكيف وقد ذهب بصرك؟ قال: لقوله: أو ادافعو، أراد: كثروا سوادهم. ووجه آخر: وهو أن يكون معنى قولهم: **﴿لو نعلم قتالاً﴾** لو نعلم ما يصح أن يسمّى قتالاً **﴿لاتبعناكم﴾**، يعنون: أنّ ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال إنّما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأنّ رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج. **﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾** يعني: أنّهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأنّ

(1) سورة الزخرف، الآية: 44.

تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين. ﴿يقولون بأفواههم﴾ لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم، ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، ونكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأنّ إيمانهم موجود في أفواههم. معدوم في قلوبهم خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ من النفاق وبما يجري بعضهم مع بعض من ذمّ المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك لأنّكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملاً بأمارات وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته.

ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾.

﴿الذين قالوا﴾ في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذمّ أو على الردّ على الذين نافقوا، أو رفعاً على هم الذين قالوا، أو على الإبدال من واو يكتمون، ويجوز أن يكون مجروراً بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم، كقوله: على جوده لضن بالماء حاتم. ﴿لإخوانهم﴾ لأجل إخوانهم، من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار. ﴿وقعدوا﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل. ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ معناه: قل إن كنتم صادقين في أنّكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدّوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني: أنّ لك الدفع غير مغنٍ عنكم لأنّكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها. وروي: أنّه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

فإنْ قلتَ[1]: فقد كانوا صادقين في أنّهم دفعوا القتل عن أنفسهم بالقعود، فما معنى قوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾؟ **قلتُ**: معناه أنّ النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأنّ أسباب النجاة كثيرة وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يدريكم أنّ سبب نجاتكم القعود وأنّكم صادقون في مقالتكم وما أنكرتم أن يكون السبب غيره. وجه آخر: إن كنتم صادقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا، يعني: أنّهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين. وقوله: فادرءوا عن أنفسكم الموت: استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت فادرءوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿ولا تحسبن﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرىء: بالياء على ولا يحسبنّ رسول الله ﷺ، أو ولا يحسبنّ حاسب، ويجوز أن يكون ﴿الذين قتلوا﴾ فاعلاً ويكون التقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي: ولا يحسبنّ الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً.

فإنْ قلتَ: كيف جاز حذف المفعول الأوّل؟ **قلتُ**: هو في الأصل مبتدأ فحذف كما حذف المبتدأ في قوله: ﴿أحياء﴾، والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما. وقرىء: ولا تحسبنّ بفتح السين، وقتلوا بالتشديد، وأحياء بالنصب على معنى: بل أحسبهم أحياء، ﴿عند ربهم﴾ مقرّبون عنده نوو زلفى، كقوله: ﴿فالذين عند ربك﴾[2] ﴿يرزقون﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء ياكلون ويشربون، وهو تاكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله.

فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾.

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقرّبين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وعن النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»[3] ﴿ويستبشرون بـ﴾ إخوانهم المجاهدين ﴿الذين لم يلحقوا بهم﴾ أي: لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿من خلفهم﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدّموهم. وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم

---

(1) قال أحمد: السؤال المذكور إنما يردّ على معتزلي من مثله، فإنهم يعتقدون أنّ الموت قد يكون بحلول الأجل، وقد يكون قبله، وأنّ المقتول لولا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك، فلا جرم أنّ الإنسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل، بتوقي الأسباب الموجبة لذلك، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور، وأمّا أهل السنة فمعتقدهم أنّ كل ميت بأجله يموت، ويقولون إنّ الخارجين إلى القتال في المعركة لم يكن بد من موتهم في ذلك الوقت، وأنّ ذلك الحين هو وقت حينهم في علم الله عز وجل إيماناً؛ بقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ وخلافاً للمنافقين، وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم: لو أطاعونا ما ماتوا، ولعمري إنهم في هذا = المعتقد مقلدون لنمرود، في قوله: أنا أحيي وأميت، فإنّ الأحمق ظنّ أنه يقتل إن شاء، فيكون ذلك إماتة ويعفو عن القتل، فيكون ذلك إحياء، وغاب عنه أنّ الذي عفا عن قتله، إنما حيي لاستيفاء الأجل الذي كتبه الله له، وأنّ الذي قتله إنما مات؛ لأنه استوفى تلك الساعة أجله، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 38.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فضل الشهادة، الحديث رقم: (2520)، والحاكم في المستدرك 2/88، ومسلم عن ابن مسعود في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنّهم أحياء عند ربهم يرزقون الحديث رقم: (4862).

ومنزلتهم. ﴿ألاّ خوف عليهم﴾ بدل من الذين، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو أنّهم يبعثون آمنين يوم القيامة بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجدّ في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم وإحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله، وبشرى للمؤمنين بالفوز في المآب.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾.

وكرر ﴿يستبشرون﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله: ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1]، من ذكر النعمة والفضل وأنّ ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع. وقرىء: وأنّ الله بالفتح عطفاً على النعمة والفضل، وبالكسر على الابتداء وعلى أنّ الجملة اعتراض وهي قراءة الكسائي، وتعضدها قراءة عبد الله: والله لا يضيع.

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾.

﴿الذين استجابوا﴾ مبتدأ خبره للذين أحسنوا، أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح. روي: أنّ أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوّةً، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال: لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت[2]. و﴿من﴾ في ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ للتبيين مثلها في قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾[3]؛ لأنّ الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم. وعن عروة بن الزبير: قالت لي عائشة رضي الله عنها: إن أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول، تعني: أبا بكر والزبير[4].

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾.

﴿الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم﴾ روي: أنّ أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت. فقال النبي ﷺ: «إن شاء الله». فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران، فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً، فقال: يا نعيم إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءةً، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل. فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم فوالله لا يفلت منكم أحد[5]. وقيل: مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة، فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم، فكره المسلمون الخروج. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد». فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل. وقيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار. حتى وافوا بدراً وأقاموا بها ثماني ليالٍ وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق. قالوا: إنّما خرجتم لتشربوا السويق، فالناس الأوّلون المثبطون والآخرون أبو سفيان وأصحابه[6].

فإنْ قلتَ: كيف قيل الناس إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ **قلتُ:** قيل ذلك لأنّه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد، أو لأنّه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه ويصلون جناح كلامه ويثبطون مثل تثبيطه.

فإنْ قلتَ: إلام يرجع المستكن في ﴿فزادهم﴾؟ **قلتُ:** لما إلى المقول الذي هو ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ كأنه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً، أو إلى مصدر قالوا، كقولك: من صدق كان خيراً له، أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده.

فإنْ قلتَ: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيماناً؟ **قلتُ:** لما لم يسمعوا قوله، وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأنّ خروجهم على أثر تثبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة،

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 170.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وابن إسحاق والزيلعي 1/244، وذكره ابن هشام في السيرة 2/121.

(3) سورة الفتح، الآية: 29.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: «الذين= = استجابوا لله ورسوله» الحديث رقم: (4077)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير الحديث رقم: (6199).

(5) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(6) أخرجه ابن سعد في الطبقات. زيلعي 1/246.

والطاعات من جملة الإيمان لأنّ الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا: يا رسول الله إنّ الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار»[1]. وعن عمر رضي الله عنه أنّه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزدد إيماناً[2]. وعنه: لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمّة لرجح به[3]. ﴿حسبنا الله﴾ محسبنا، أي: كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه، والدليل على أنّه بمعنى المحسب، أنّك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة لأنّ إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة. ﴿ونعم الوكيل﴾ ونعم الموكول إليه هو.

فَانقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾.

﴿فانقلبوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بنعمة من الله﴾ وهي السلامة وحذر العدوّ منهم، ﴿وفضل﴾ هو الربح في التجارة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾[4] ﴿لم يمسسهم سوء﴾ لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ بجرأتهم وخروجهم. ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. وروي: أنّهم قالوا: هل يكون هذا غزواً؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾.

﴿الشيطان﴾ خبر ذلكم بمعنى إنّما ذلكم المثبط هو الشيطان، ويخوّف أولياءه: جملة مستانفة بيان لشيطنته، أو الشيطان صفة لاسم الإشارة ويخوّف الخبر، والمراد بالشيطان نعيم أو أبو سفيان، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف بمعنى: إنّما ذلكم قول الشيطان، أي: قول إبليس لعنه الله. ﴿يخوّف أولياءه﴾ يخوّفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: يخوّفكم أولياءه، وقوله: فلا تخافوهم. وقيل: يخوّف أولياءه القاعدين عن الخروج مع رسول الله ﷺ.

فإنْ قلتَ: فإلام رجع الضمير في ﴿فلا تخافوهم﴾ على هذا التفسير؟ **قلتُ:** إلى الناس في قوله: إنّ الناس قد جمعوا لكم فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا. ﴿وخافون﴾ فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: أنّ الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ولا يخشون أحداً إلا الله.

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾.

﴿يسارعون في الكفر﴾ يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشدّ رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿ولا يحزنك﴾، ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ **قلتُ:** معناه لا يحزنوك لخوف أن يضرّك ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إنّهم لن يضروا الله شيئاً﴾ يعني: إنّهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ أي: نصيباً من الثواب، ﴿ولهم﴾ بدل الثواب ﴿عذاب عظيم﴾، وذلك أبلغ ما ضرّ به الإنسان نفسه.

فإنْ قلتَ: هلا قيل لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة، وأيّ فائدة في ذكر الإرادة؟ **قلتُ:** فائدته الإشعار بأنّ الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر، تنبيهاً على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه حتى أنّ أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾.

﴿إنّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ إمّا أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم، وإمّا أن يكون عاماً للكفار والأوّل خاصاً فيمن نافق من المتخلفين أو ارتدّ عن الإسلام أو على العكس. و﴿شيئاً﴾ نصب على المصدر، لأنّ المعنى: شيئاً من الضرر وبعض الضرر.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾.

﴿الذين كفروا﴾ فيمن قرأ بالتاء نصب، و﴿إنّما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل منه، أي: ولا تحسبنّ أنّ ما نملي للكافرين خير لهم، وأنّ مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون﴾[5] وما مصدرية بمعنى: ولا تحسبنّ أنّ إملاءنا خير، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف.

فإنْ قلتَ: كيف صحّ مجيء البدل ولم يذكر إلا أحد

(1) الثعلبي في تفسيره [الزيلعي 2471].

(2) البيهقي في شعب الإيمان، باب: القول في زيادة الإيمان ونقصانه... الحديث رقم: (38).

(3) أخرجه البيهقي في الشعب 1/69، الحديث رقم: (36).

(4) سورة البقرة، الآية: 198.

(5) سورة الفرقان، الآية: 44.

المفعولين، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ **قلتُ:** صحّ ذلك من حيث إنّ التعويل على البدل والمبدل منه في حكم المنحى، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك، ويجوز أن يقدّر مضاف محذوف على ولا تحسبنّ الذين كفروا أصحاب أنّ الإملاء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبنّ حال الذين كفروا أنّ الإملاء خير لأنفسهم، وهو فيمن قرأ بالياء رفع والفعل متعلق بأنّ وما في حيزه.

والإملاء لهم: تخليتهم وشأنهم مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. وقيل: هو إمهالهم وإطالة عمرهم، والمعنى: ولا تحسبنّ أنّ الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع آجالهم. **﴿إنّما نملي لهم﴾** ما هذه حقها أن تكتب متصلةً لأنّها كافة دون الأولى، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها. كأنّه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم: فقيل: **﴿إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾.**

فإنْ قلتَ[1]: كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملائه لهم؟ **قلتُ:** هو علة للإملاء وما كل علة بغرض، إلا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء منها بغرض لك وإنّما هي علل وأسباب، فكذلك ازدياد الإثم جعل علةً للإمهال وسبباً فيه.

فإنْ قلتَ: كيف يكون ازدياد الإثم علةً للإملاء كما كان العجز علةً للقعود عن الحرب؟ **قلتُ:** لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنّهم مزدادون إثماً فكان الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية: ولا يحسبنّ بالياء على معنى: ولا يحسبنّ الذين كفروا أنّ إملاءنا لازدياد الإثم كما يفعلون، وإنّما هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. وقوله: إنّما نملي لهم خير لأنفسهم اعتراض بين الفعل ومعموله، ومعناه أنّ إملاءنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم بتفسح المدّة وترك المعاجلة بالعقوبة.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: **﴿ولهم عذاب مهين﴾** على هذه القراءة؟ **قلتُ:** معناه ولا تحسبوا إن إملاءنا لزيادة الإثم وللتعذيب، والواو للحال، كأنّه قيل: ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين.

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾.

اللام لتأكيد النفي على **﴿ما أنتم عليه﴾** من اختلاط المؤمنين الخلص والمنافقين، **﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾** حتى يعزل المنافق عن المخلص. وقرىء: يميز من ميز، وفي رواية عن ابن كثير: يميز من أماز بمعنى ميز.

فإنْ قلتَ: لمن الخطاب في أنتم؟ **قلتُ:** للمصدّقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنّه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنّه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم. ثم قال: **﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾** أي: وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر إنّه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها. **﴿ولكن الله﴾** يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأنّ في الغيب كذا وأنّ فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة إطلاعه على المغيبات. ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخلص الذين امتحن الله قلوبهم، كبذل الأرواح في الجهاد وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها، فإنّ ذلك مما استأثر الله به، وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها. ولكن الله **﴿يجتبي من رسله من يشاء﴾** فيخبره ببعض المغيبات، **﴿فآمنوا بالله ورسله﴾** بأن تقدروه حق قدره وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب وليسوا من علم الغيب في شيء. وعن السدي: قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر. فنزلت.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾.

﴿ولا تحسبن﴾ من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذلك من قرأ بالياء. وجلّ فاعل يحسبن ضمير رسول الله أو ضمير أحد، ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأوّل عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم **﴿هو خيراً لهم﴾** والذي سوّغ حذفه دلالة يبخلون عليه وهو فصل. وقرأ الأعمش بغير هو. **﴿سيطوقون﴾** تفسير

---

(1) قال أحمد: بنى الزمخشري هذا الجواز على ﴿شفا جرف هار﴾؛ لأن معتقده أنّ الإثم الواقع منهم، ليس مراداً لله تعالى، بل هو واقع على خلاف الإرادة الربانية، فلما وردت الآية مشعرة بأنّ = ازدياد الإثم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل أخذ يعمل الحيلة في وجه من التعطيل التزاماً، لإتمام الفاسد، وضرباً في حديد بارد، فجعل ازدياد الإثم سبباً، وليس بغرض.

لقوله: ﴿هو شر لهم﴾، أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة إذا جاء بهنة يسب بها ويذم. وقيل: يجعل ما بخل به من الزكاة حيةً يطوّقها في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك. وعن النبي ﷺ في مانع الزكاة: «يطوّق بشجاع أقرع»[1]. وروي: «بشجاع أسود». وعن النخعي: سيطوّقون بطوق من نار. ﴿ولله ميراث السمٰوات والأرض﴾ أي: وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[2] وقرىء: بما تعملون بالتاء والياء، فالتاء على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد، والياء على الظاهر.

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾.

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾[3] فلا يخلو إمّا أن يقولوه عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر عن متمردين في كفرهم، ومعنى سماع الله له أنّه لم يخف عليه وأنّه أعدّ له كفاءه من العقاب. ﴿سنكتب ما قالوا﴾ في صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب.

فإنْ قلتَ: كيف قال: ﴿لقد سمع الله﴾ ثم قال: ﴿سنكتب﴾ وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ **قلتُ:** ذكر وجود السماع أوّلاً مؤكداً بالقسم، ثم قال سنكتب على جهة الوعيد بمعنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينةً له إيذاناً بأنّهما في العظم إخوان، وبأن هذا ليس بأوّل ما ركبوه من العظائم وأنّهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأنّ من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول. وروي: أنّ رسول الله ﷺ كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إنّ الله فقير حين سألنا القرض. فلطمه أبو بكر في وجهه، وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك. فشكاه إلى رسول الله ﷺ، وجحد ما قاله، فنزلت[4]. ونحوه قولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾[5]. ﴿ونقول﴾ لهم: ﴿ذوقوا﴾ وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: ذوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ كما أنقتم المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحسن وذق. وقال أبو سفيان لحمزة رضي الله عنه: ذق عقق[6]. وقرأ حمزة: سيكتب بالياء على البناء للمفعول، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج: سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود: ويقال ذوقوا.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من عقابهم. وذكر الأيدي، لأن أكثر الأعمال تزاول بهن، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب.

فإنْ قلتَ: فلم عطف قوله: ﴿وأنّ الله ليس بظلام للعبيد﴾ على ما ﴿قدّمت أيديكم﴾، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب! **قلتُ:** معنى كونه غير ظلام للعبيد: أنّه عادل عليهم، ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾.

﴿عهد إلينا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قرباناً تنزل ناراً من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آيتهم كان يقرب بالقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله لأنّ أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء، فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات، وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤوا بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق وجاؤوهم أيضاً بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلوهم إن كانوا صادقين إن الإيمان يلزمهم بإتيانها. وقرىء: بقربان بضمتين، ونظيره السلطان.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿وبالذي قلتم﴾ ؟ **قلتُ:** معناه وبمعنى الذي قلتموه من قولكم قربان تأكله النار، ومؤدّاه كقوله: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ أي: لمعنى ما قالوا.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾.

في مصاحف أهل الشام: وبالزبر، وهي: الصحف، ﴿والكتاب المنير﴾ التوراة والإنجيل والزبور، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتكذيب اليهود. وقرأ اليزيدي: ذائقة الموت، على الأصل. وقرأ الأعمش: ذائقة الموت، بطرح التنوين على النصب، كقوله:

ولا ذاكر الله إلا قليلاً

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (1403)، ومسلم بنحوه في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (2293).

(2) سورة الحديد، الآية: 7.

(3) سورة البقرة، الآية: 245.

(4) رواه الواحدي في أسباب النزول، ص 77.

(5) سورة المائدة، الآية: 64.

(6) ابن هشام في سيرته: 2/93.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾.

فإنْ قلتَ: كيف اتصل به قوله: **﴿وإنّما توفون أجوركم﴾؟ قلتُ:** اتصاله به على أنّ كلكم تموتون ولا بدّ لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم وإنّما توفونها يوم قيامكم من القبور.

فإنْ قلتَ: فهذا يوهم نفي ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار[1]! **قلتُ:** كلمة التوفية تزيل هذا الوهم[2]، لأنّ المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور.

الزحزحة: التنحية والإبعاد، تكرير الزح وهو الجذب بعجلة. **﴿فقد فاز﴾** فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب. وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[3]. وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغرّ حتى يشتريه ثم يتبين له فساده ورداءته، والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنّما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأمّا من طلب الآخرة بها فإنّها متاع، بلاغاً خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدّون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدّة بغتةً فيكرهها وتشمئز منها نفسه.

❁ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾.

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال الإنفاق في سبل الخير وما يقع فيها من الآفات.

وما يسمعون من أهل الكتاب: المطاعن في الدين الحنيف، وصدّ من أراد الإيمان وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف من عجائه لرسول الله ﷺ وتحريض المشركين، ومن فنحاص ومن بني قريظة والنضير: **﴿فإنّ ذلك﴾** فإنّ الصبر والتقوى **﴿من عزم الأمور﴾** من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون، يعني: إنّ ذلك عزمة من عزمات الله لا بدّ لكم أن تصبروا وتتقوا.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾.

﴿وإذ أخذ الله﴾ واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب **﴿لتبيننه﴾** الضمير للكتاب، أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه. وقيل له: آلله لتفعلنّ **﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾** فنبذوا الميثاق، وتأكيده عليهم يعني: لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه.

والنبذ وراء الظهر: مثل في الطرح وترك الاعتداد، ونقيضه: جعله نصب عينيه وإلقاء بين عينيه، وكفى به دليلاً على أنّه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسدٍ من تسهيل على الظلمة؛ وتطييب لنفوسهم، استجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه، ولا إمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم. وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار»[4]. وعن طاووس أنّه قال لوهب: إنّي أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب، وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أنّ الله سيعذبك. وعن محمد بن كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه، ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا[5]. وقرىء: ليبيننه ولا يكتمونه بالياء لأنّهم غيب، وبالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: **﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن﴾**[6].

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (26) الحديث رقم: (2460).

(2) قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم، وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به، والله الموفق.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول الحديث رقم: (4753).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم الحديث = رقم: (3658)، والترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في كتمان العلم الحديث رقم: (2649)، وابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه الحديث رقم: (261)، وأخرجه الحاكم في المستدرك 1/102، وابن حبان في كتاب: العلم. الحديث رقم: (96)، وأخرجه أبو يعلى، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه، الحديث رقم: (264).

(5) سند الفردوس ـ الثعالبي.

(6) سورة الإسراء، الآية: 4.

﴿لا تحسبن﴾ خطاب لرسول الله ﷺ وأحد المفعولين ﴿الذين يفرحون﴾، والثاني بمفازة، وقوله: فلا تحسبنهم تأكيد تقديره لا تحسبنهم فلا تحسبنهم فائزين. وقرىء: لا تحسبن فلا تحسبنهم بضم الباء على خطاب المؤمنين، ولا يحسبن فلا يحسبنهم بالياء وفتح الياء فيهما على أنّ الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأوّل وضمها في الثاني على أنّ الفعل للذين يفرحون والمفعول الأوّل محذوف على لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، فلا يحسبنهم تأكيد ومعنى ﴿بما أتوا﴾ بما فعلوا. وأتى وجاء يستعملان بمعنى فعل. قال الله تعالى: ﴿إنه كان وعده مأتيًّا﴾[1]، ﴿لقد جئت شيئاً فريًّا﴾[2] ويدل عليه قراءة أبيّ: يفرحون بما فعلوا. وقرئ مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنّهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم[3]، أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب. ومعنى: يفرحون بما أوتوا، بما أتوه من علم التوراة. وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله ﷺ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا: أنّ إبراهيم كان على اليهودية وأنّهم على دينه، وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنّهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا إليه بترك الخروج. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم ووصلهم بذلك إلى إغراضهم ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر، ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب يحبّ أن يحمده الناس، ويثنوا عليه بالديانة والزهد، وبما ليس فيه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾.

﴿ولله ملك السمٰوات والأرض﴾ فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير فهو يقدر على عقابهم.

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾.

﴿لآيات﴾ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته ﴿لأولي الألباب﴾ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، وفي النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدرها، متدبراً حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قلت لعائشة رضي الله عنها: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ. فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى الصق جلده بجلدي، ثم قال: «يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي». فقلت: يا رسول الله إنّي لأحب قربك وأحب هواك، قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً» ثم قال: «ومالي لا أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿إنّ في خلق السمٰوات والأرض﴾. ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[4]. وروي: «ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمّلها»[5]. وعن علي رضي الله عنه: أنّ النبيّ ﷺ كان إذا قام من الليل يتسوّك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: «إنّ في خلق السمٰوات والأرض»[6] وحكي: أنّ الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة، فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله. فقالت له أمّه: لعلّ فرطةً فرطت منك في مدّتك. فقال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرّة إلى السماء ولم تعتبر. قال: لعلّ، قالت: فما أتيت إلاّ من ذاك.

ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾.

﴿الذين يذكرون الله﴾ ذكراً دائباً، على أي حال كانوا من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون بالذكر في أغلب أحوالهم. وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة، أنّهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾. فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. وعن النبي ﷺ: «من أحبّ

(1) سورة مريم، الآية: 61.

(2) سورة مريم، الآية: 27.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب ﴿لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا﴾ الحديث رقم: (4568)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم الحديث رقم: (620).

(4) ابن سردويه في تفسيره.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس في كتاب: التفسير، باب: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض﴾ الحديث رقم: (4569)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه الحديث رقم: (1785).

(6) أخرجه ابن أبي شيبة 302/10، كتاب: الدعاء، باب: في ثواب ذكر الله.

أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[1]. وقيل: معناه يصلون في هذه الأحوال على حسب استطاعتهم. قال رسول الله ﷺ لعمران بن الحصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء»[2]. وهذه حجة للشافعي رحمه الله في اضجاع المريض على جنبه كما في اللحد. وعند أبي حنيفة رحمه الله أنّه يستلقي حتى إذا وجد خفةً قعد. ومحل ﴿على جنوبهم﴾ نصب على الحال عطفاً على ما قبله، كأنّه قيل: قياماً وقعوداً ومضطجعين. ﴿ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض﴾ وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع صنعتها، وما دبر فيها مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم شأن الصانع وكبرياء سلطانه. وعن سفيان الثوري: أنّه صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشي عليه وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته. وعن النبيّ ﷺ: «بينما رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أنّ لك رباً وخالقاً اللهمّ اغفر لي. فنظر الله إليه فغفر»[3]. وقال النبي ﷺ: «لا عبادة كالتفكر»[4]. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة ويحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة. وروي عن النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى، فإنّه كان يرفع له في كل يوم مثل عمل أهل الأرض»[5]. قالوا: وإنّما كان ذلك التفكر في أمر الله الذي هو عمل القلب، لأنّ أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض. ﴿ما خلقت هذا باطلاً﴾ على إرادة القول، أي: يقولون ذلك، وهو في محل الحال بمعنى يتفكرون قائلين، والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً بغير حكمة بل خلقته لداعي حكمة عظيمة وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين أدلةً لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك، ولذلك وصل به قوله: ﴿فقنا عذاب النار﴾ لأنّه جزاء من عصى ولم يطع.

فإنْ قلتَ: هذا إشارة إلى ماذا؟ **قلتُ:** إلى الخلق، على أنّ المراد به المخلوق، كأنّه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي: فيما خلق منها. ويجوز أن يكون إشارة إلى السمٰوات والأرض لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل:ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً، وفي هذا ضرب من التعظيم، كقوله: ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[6] ويجوز أن يكون باطلاً حالاً من هذا. وسبحانك اعتراض للتنزيه من العبث وأن يخلق شيئاً بغير حكمة.

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾.

﴿فقد أخزيته﴾ فقد أبلغت في إخزائه، وهو نظير قوله: ﴿فقد فاز﴾[7] ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الضمان فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق. ﴿وما للظالمين﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار، وإعلام بأنّ من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها. تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، وسمعت زيداً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالاً عنه فاغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد وأن يقال: سمعت كلام فلان أو قوله.

رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾.

فإنْ قلتَ: فأي فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ **قلتُ:** ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي لأن لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان، ونحوه قولك: مررت بهادٍ يهدي للإسلام، وذلك أنّ المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء الثائرة أو لإغاثة المكروب أو لكفاية بعض النوازل أو لبعض المنافع، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق ويهدي لسداد الرأي وغير ذلك. فإذا قلت: ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته. ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، وندبه له وإليه، وناداه له وإليه، ونحوه هذاه للطريق وإليه. وذلك أنّ معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً، والمنادي هو الرسول، ادعوا إلى الله وادع إلى سبيل ربك. وعن محمد بن كعب: القرآن. ﴿أن آمنوا﴾ أي: آمنوا، أو بأن آمنوا. ﴿فنوبنا﴾ كبائرنا. ﴿وسيآتنا﴾ صغائرنا. ﴿مع الأبرار﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في جملتهم، والأبرار جمع بر وبار، كرب وأرباب وصاحب وأصحاب.

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾.

﴿على رسلك﴾ على هذه صلة للوعد كما في قولك:

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعداً الحديث رقم (1117)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: في صلاة القاعد، الحديث رقم: (952)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم الحديث رقم: (372)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة المريض الحديث رقم: (1123).

(2) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تقدير نعم الله عز وجل وشكرها، فصل في فضل العقل الحديث رقم: (4647).

(4) قال الزيلعي غريب جداً 1/264.

(5) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (1/237) وذكره الزبيدي في إتحاف المتقين (2/105).

(6) سورة الإسراء، الآية: 9.

(7) سورة آل عمران، الآية: 185.

وعد الله الجنة على الطاعة، والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك، ألا تراه كيف اتبع ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول، وقوله: آمنا وهو التصديق، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف، أي: ما وعدتنا منزلاً على رسلك أو محمولاً على رسلك لأنّ الرسل محملون ذلك فإنما عليه ما حمل. وقيل: على ألسنة رسلك، والموعود هو الثواب. وقيل: النصرة على الأعداء.

فإنْ قلتَ: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد؟ **قلتُ:** معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد، أو هو باب من اللجا إلى الله، والخضوع له كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربهم، والتضرع إليه، واللجأ الذي هو سيما العبودية.

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾.

يقال:

استجاب له واستجابه فلم يستجبه عند ذلك مجيب

﴿أني لا أضيع﴾ قرىء: بالفتح على حذف الباء، وبالكسر على إرادة القول. وقرىء: لا أضيع بالتشديد. **﴿من ذكر وأنثى﴾** بيان لعامل **﴿بعضكم من بعض﴾**، أي: بجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم، وقيل: المراد وصلة الإسلام، وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين.

وروي أنّ أمّ سلمة قالت: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء[1] فنزلت. **﴿فالذين هاجروا﴾** تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم. كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطروا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشؤوا بما سامهم المشركون من الخسف. **﴿وأوذوا في سبيلي﴾** من أجله وبسببه، يريد سبيل الدين. **﴿وقاتلوا وقتلوا﴾** وغزوا المشركين واستشهدوا وقُرئ وقتلوا بالتشديد، وقتلوا وقاتلوا على التقسيم بالتخفيف والتشديد، وقتلوا وقتلوا على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول، وقتلوا وقاتلوا على بنائهما للفاعل. **﴿ثواباً﴾** في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابةً أو تثويباً. **﴿من عند الله﴾** لأنّ قوله: **﴿لأكفرن عنهم﴾** **﴿ولأدخلنهم﴾** في معنى لأثيبنهم. وعنده مثل أي يختص به وبقدرته وفضله لا يثيبه غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرته. وهذا تعليم من الله كيف يدعي وكيف يبتهل إليه ويتضرّع. وتكرير ربنا من باب الابتهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة، وحسن الإثابة من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب موصولاً إليه بالعمل بالجهل والغباوة. وروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية. وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم. إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به فلا بدّ من تقديمه بين يدي الدعاء.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾.

﴿لا يغرّنك﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. أي: لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب ودرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغترر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون. عن ابن عباس: هم أهل مكة. وقيل: هم اليهود. وروي: أن ناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إنّ أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد.

فإنْ قلتَ: كيف جاز أن يغتر رسول الله ﷺ بذلك حتى ينهى عن الاغترار به؟ **قلتُ:** فيه وجهان:

أحدهما: أن مدره القوم ومتقدّمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: لا يغرنكم.

والثاني: أنّ رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: ﴿ولا تكن من الكافرين﴾[2]، ﴿ولا تكونن من المشركين﴾[3]، ﴿ولا تطع المكذبين﴾[4]، وهذا في النهي نظير قوله في الأمر. ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[5]، ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾[6]، وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأنّ التقلب لو غرّه لاغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب. وقرىء: لا يغرّنك بالنون الخفيفة.

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾.

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك متاع قليل

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء الحديث رقم: (3023).
(2) سورة هود، الآية: 42.
(3) سورة الأنعام، الآية: 14.
(4) سورة القلم، الآية: 8.
(5) سورة الفاتحة، الآية: 6.
(6) سورة النساء، الآية: 136.

وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[1]. **﴿وبئس المهاد﴾** وساء ما مهدوا لأنفسهم.

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾.

النزل والنزل: ما يقام للنازل. قال أبو الشعراء الضبي:

وكنا إذا الجبار ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وانتصابه إمّا على الحال من جنات لتخصصها بالوصف، والعامل اللام: ويجوز أن يكون بمعنى مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً أو عطاءً **﴿من عند الله وما عند الله﴾** من الكثير الدائم. **﴿خير للأبرار﴾** مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل. وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش: نزلاً بالسكون. وقرأ يزيد بن القعقاع: لكنّ الذين اتقوا بالتشديد.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾.

﴿وإنّ من أهل الكتاب﴾ عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وقيل: في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا. وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة عطية بالعربية، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى الله واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط وليس على دينه[2]. فنزلت. ودخلت لام الابتداء على اسم إنّ لفصل الظرف بينهما كقوله: **﴿وإنّ منكم لمن ليبطئن﴾**[3] **﴿وما أنزل إليكم﴾** من القرآن، **﴿وما أنزل إليهم﴾** من الكتابين، **﴿خاشعين لله﴾** حال من فاعل يؤمن لأنّ من يؤمن في معنى الجمع. **﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾** كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم. **﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾** أي: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعده في قوله: **﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾**[4]، **﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾**[5] **﴿إن الله سريع الحساب﴾** لنفوذ علمه في كل شيء فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر، ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآتٍ قريب بعد ذكر الموعد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾.

﴿اصبروا﴾ على الدين وتكاليفه، **﴿وصابروا﴾** أعداء الله في الجهاد. أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدّته وصعوبته. **﴿ورابطوا﴾** وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدّين للغزو. قال الله عز وجل: **﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ وعدوّكم﴾**[6]. وعن النبي ﷺ: «من رابط يوماً وليلةً في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة»[7]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس»[8].

سورة النساء

مدنية وهي مائة وستة وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ يا بني آدم، **﴿خلقكم من نفس واحدة﴾** فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة الحديث رقم: (7126).

(2) الدارمي في أسباب النزول ص 81.

(3) سورة النساء، الآية: 72.

(4) سورة القصص، الآية: 54.

(5) سورة الحديد، الآية: 28.

(6) سورة الأنفال، الآية: 60.

(7) أحمد في المسند 5/440، ولفظه «أو ليلة» ولم يذكر و«قيامه»، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل الحديث رقم: (4915) وأخرجه ابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد، الحديث رقم: (4623).

(8) ابن الجوزي في الموضوعات ـ ابن مردويه ـ الواحدي في تفسيره. [زيلعي 1/268].